26

عبد الوهاب مطاوع

ترانيم الحب والعذاب



الدار المصرية اللبنانية

ترانيم الحب والعذاب

قد لايتصور البعض هذا الكم الهائل من المشاكل الإنسانية والاجتماعية التى أصبحت تعصف بنفوس البشر ، وتطحن الناس وكأنهم حبوب صغيرة دفعتهم تصاريف الحياة بين شقّى الرحى.

الإنسان منذ وجد على وجه الأرض وهو يسعى إلى الأمان والسلام والطمأنينة .. وعندئذ يتغنى بهذا الشعور الجميل الذى يملأ فؤاده ، ويحلق به فى سحابات السعادة والود والصفاء النفسى.

ولكن بقاء الحال من المحال كما يقولون ، وهو قول صحيح فى معظم الأحوال .. فقد يتزلزل الود ، ويتعكر الصفاء وتهتز السعادة أمام رياح الشقاء .. وعندئذ يحل العذاب بالنفس الإنسانية وتحل الأحزان محل الأفراح.

وفى هذا الكتاب يتحفنا الأديب الإنسان الأستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع بمجموعة من المواقف الإنسانية والمشاكل الاجتماعية .. بعضها يتغنى بترانيم الحب .. وبعضها الآخر يترنم بآهات اللوعة والعذاب...



* نائب رئيس تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب.
* حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية.
* يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام.
* صدر له أكثر من ٢٧ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصًا قصيرة وصورًا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات.
* له ثلاث مجموعات قصصية هى: (أماكن فى القلب) (ولاتنسنى) ، (والحب فوق البلاط).

الدار المصرية اللبنانية

6 222006 310424

الفهرس

عبد الوهاب مطاوع

ترانيم الحب والعذاب

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟

شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ صدق الله العظيم

مقدمة

ترانيم الحب والعذاب

القليل يسعدنا . . لأن القليل أيضا يشجينا !

كلمة معبرة للكاتب والفيلسوف الفرنسى « باسكال » الذى ولد عام ١٦٢٣م ، ومات عام ١٦٦٢م ، وعاش ٣٩ عاما فقط ، وقد سجلها فى كتاب « الخواطر » ، فلم تزل منذ قرأتها وتعرفت عليها تراودنى من حين لآخر وأتذكرها كلما تأملت بعض مواقف الحياة .

فالقليل من أسباب البهجة قد يسعدنا بحق إذا عرفنا له قيمته وعرفنا كيف نستمتع به . . والقليل من أسباب التعاسة قد يشقينا بالضرورة ويشعرنا بالأسى له والانكسار أمامه . . ولأن حواسنا تتنبه لأسباب الشقاء والتعاسة بأسرع مما تتهلل لأسباب البهجة والسرور ، فمن واجب الإنسان تجاه نفسه أن يدرب مشاعره على الاحتفاء بالقليل الذى يتاح له من أسباب السعادة . . كما يتأثر تلقائيا بدواعى الشجن والتعاسة . . فنعادل بذلك بين لحظات البهجة القصيرة وفترات الشجن البطيئة . . ونقبل بهذا المزيج العادل ونمضى فى طريقنا إلى غايته المرسومة ، كما

يفعل ماء النهر الذى لا يرجع إلى منابعه أبدا ، ويواصل السير دوما مع التيار إلى مصبه الحتمى ، ولأن الأمر كذلك فلا مفر أمامنا من أن نحاكى النهر فى مسيرته الأبديه ونمضى فى طريقنا المقدور لنا راضين بما حملته الأمواج لنا من أسباب السعادة وأكدار الشقاء . . وفى هذا الكتاب بعض الصور الأدبية والمقالات التى تسجل طرفا من ثنائية الحب والعذاب . . والبهجة . . والشجن!

عبد الوهاب مطاوع

الحلم القصير

ترانيم الحب والعذاب

ماذا دهاها حين رأت هذا الرجل ؟

ولماذا تشعر بهذه الرغبة القاتلة فى الحديث معه ؟ ولماذا تفتنها كل كلمة ينطق بها ، ولو كانت كلمة عادية ومألوفة ؟ بل ولماذا تضحك أيضاً من قلبها لكل طرفة يرويها لها ، ولو كانت تعرفها من قبل ؟

إنه ليس وسيماً كنجوم السينما . . ، ولكن ملامحه توحى بالطيبة والجدية والثقة ، فلماذا إذاً تشعر بهذا « الانجذاب » القاهر إليه ؟

سألت نفسها هذه الأسئلة مراراً ، وهى تعجب لأمرها ، وتحس بأنها كما لو كانت منومة مغناطيسياً ، وتحتاج لمن يفيقها من هذه الغيبوبة الطارئة . . ولقد حاولت ذلك بالفعل ، حتى لطمت خدها بيدها لطمة خفيفة ، كأنما تنبه نفسها للصحو من هذا الحلم الغريب . . والإفاقة على الواقع الذى ينبغى لها ألا تنساه .

فهى ليست فتاة طائشة ؛ لكى تنجذب لأول من يلفت نظرها من الرجال ، ولا هى امرأة عابثة ، تستجيب لنزواتها وتستسلم لها بلا مقاومة، إنها امرأة محترمة ، يشهد لها الجميع بذلك ، وزوجة مخلصة

لزوجها منذ ارتبطت به ، وأم رءوم لفتى وفتاة على مشارف سن الشباب . فماذا جرى لها إذاً ؟ وهل يمكن أن يتعرض الإنسان فجأة لمثل هذا الزلزال، الذى يهزه من الأعماق بغير مقدمات ؟

لقد كانت تعيش حياة هادئة تماماً فى هذه البلدة الصغيرة مع زوجها وابنيها ، فيعمل زوجها فى المزرعة المحيطة بالبيت ، وتساعده هى من حين لآخر فى عمله ، ويذهب أبناؤها إلى المدرسة بالبلدة القريبة ، وتجتمع الأسرة كل ليلة على مائدة العشاء فى أمان ، والحياة تمضى فى طريقها المرسوم ، صحيح أنها حياة هادئة وفاترة بعض الشىء ، ولكنها أيضاً حياة هادئة ، ولا تشهد أية منغصات ؛ فزوجها يحبها بإخلاص منذ رآها لأول مرة وارتبط بها ، وهجرت بلدها وجاءت للإقامة معه فى هذه المزرعة ، وابناها وديعان ومتفوقان فى الدراسة ، وإن كانا قد كبرا الآن ، وبدآ يميلان للاستقلال بأفكارهما وأوقاتهما عنها . .

والبلدة التى يعيشون فيها جميعاً بلدة صغيرة وهادئة ، والجيران طيبون، وما يجرى لأحدهم من أحداث يعرف به الجميع على الفور ؛ لأنها بلدة لا أسرار لها . . ولقد كان حديثها فى الفترة الأخيرة عن تلك السيدة التى خالفت المألوف ، وأحبّت رجلاً متزوجاً من أبناء البلدة وأحبها ؛ فنبذها أكثر أهل البلدة استياءً منها وامتنعوا عن دعوتهم إلى بيوتهم فى المناسبات الاجتماعية ، ولم يقبل أحد عذرها فى أنها قد أحبت رغماً عنها ، ولم تكن تريد ذلك لنفسها ، ولكنه الحب الذى لا سلطان عليه لأحد ! .

ولقد كانت هى نفسها واحدة من هؤلاء « الآخرين» ، الذين أدانوا هذه السيدة الخاطئة ، وقاطعوها احتجاجاً عليها ، فماذا دهاها حتى تضع نفسها فى مثل هذه التجربة المزلزلة !

لقد كانت تشعر فى الفترة الأخيرة بالسأم والملل ، وشىء من الغربة النفسية بعد ١٨ عاماً من الزواج ، ولهذا فلقد رحبت فى أعماقها باعتزام زوجها اصطحاب ابنيه إلى مدينة بعيدة لمدة ٤ أيام ؛ لكى يشترك باسم ابنته فى سباق لاختيار أجمل الخيول الصغيرة ، ورفضت إلحاح زوجها وولديها عليها ؛ لكى تصحبهم فى هذه الرحلة ، وآثرت بأن تختلى بنفسها هذه الأيام الأربعة ، لعلها تستعيد بعض حماسها للحياة ، وودعت ولديها، وزوجها يسألها فى حيرة . . كيف سيواتيه النوم خلال هذه الأيام الأربعة ، وهو الذى لا يطمئن له جانب ، إلا إذا كانت إلى جواره ؟ وهى تطيب خاطره بأنها وحدة مؤقتة ولن تطول به .

ثم ودعها الجميع ، ومضت بهم السيارة على الطريق الممتد أمام البيت الهادىء ، ومن هذا الطريق نفسه جاءها «قدرها » بعد ساعتين فقط من رحيل الأسرة ! .

فلقد كانت تجلس فى الشرفة الأرضية للبيت تستمع إلى الموسيقى ، وتسرح بخواطرها بعيداً، حين شاهدت سيارة تقترب من البيت ، ثم تتوقف أمامه، وينزل منها رجل متوسط العمر ، مريح الملامح ، فيتجه إليها ويسألها عن الطريق إلى جسر قديم بهذه المنطقة ، يريد أن يصوره للمجلة الجغرافية التى يعمل بها ؛ فتشرح له الطريق بإسهاب ، ويركز

هو انتباهه على شرحها ؛ لكيلا يضل الطريق إليه ؛ فإذا بها تتوقف عن الشرح فجأة ، وتسأله :

ـ هل تحب أن آتى معك لأرشدك إليه !

فماذا دفعها لأن تعرض عليه هذا العرض . . ولم يكن مطلوباً منها ؟

إنه سؤال لم تستطع الإجابة عنه أبداً بعد ذلك ، وكل ما استطاعت أن تفسره به لنفسها ، هو أنها قد أحست برغبة قوية مفاجئة فى أن تصطحب هذا الرجل إلى الجسر الذى يبحث عنه ، فوجهت هذا السؤال إليه .

ولقد رحب الرجل بالطبع بعرضها الكريم . . وركبت إلى جواره السيارة ، وخلال الطريق تبادلا حديث الغرباء ، الذين يلتقون لأول مرة، ولكنه حين مال بجسمه قليلاً ليخرج شيئاً من «تابلوه السيارة » ، ولمس ذراعه عفواً ذراعها ، أحست بتيار صاعق يسرى فى جسمها كله . . ويزلزله ! .

وعند الكوبرى نزل الرجل . . واختار مواقع التصوير ، واعتزم أن يرجع إليه مع أول ضوء فى الفجر ؛ ليبدأ مهمته وعادا بالسيارة إلى بيتها ، فأنزلها أمامه ، وشكرها على لطفها كثيراً . واستدار ليركب السيارة ؛ ليذهب إلى فندق البلدة الوحيد . . فإذا بالسيدة الجميلة تسأله مرة أخرى ، بعد شىء من التردد :

ـ ما رأيك فى فنجان من الشاى !

فلا يملك إلا القبول شاكراً . . وتتقدمه إلى البيت وتبدأ فى إعداد الشاى بالمطبخ . . وهى لا تدرى ماذا أصابها . . ولا كيف فعلت ما فعلت ، وتجلس إلى مائدة المطبخ أمامه ؛ فتسأله عن نفسه وعن حياته ، ويسألها هو عن نفسها وعن حياتها ، وتعرف أنه مطلق منذ سنوات ، ويعيش كالطائر الحر الشريد ، ينتقل من بلد إلى بلد ، ويرسل صوره إلى المجلة الجغرافية من أى مكان فى العالم ، ويعرف هو عنها أنها زوجة وأم ، وان أسرتها غائبة فى رحلة قصيرة لمدة ٤ أيام ، ويتواصل الحديث بينهما بهيجاً ومثيراً للاهتمام والحماس ، كأنما قد ألقت الأقدار فى بحيرة حياتها الراكدة حجراً ، حرك الماء الساكن فجأة .

ويرتوى الرجل من كرم السيدة الرقيقة ؛ فينهض شاكراً لها مساعدتها له ، والوقت البهيج الذى أمضاه فى ضيافتها وترد عليه تحيته ساهمة . . ثم تفاجئه للمرة الثالثة بهذا السؤال الغريب :

ـ هل تحب أن تبقى لتناول العشاء !

فهل يملك رجل مثله إلا الاستجابة ؟ لقد رحب على الفور بالدعوة ، واستأذنها فى أن يخرج للحظات إلى سيارته ؛ ليبدل قميصه استعداداً للعشاء ، وخرج فهزت رأسها بعنف ، كأنما تريد أن تصحو من حلم ، سلبها كل إرادتها وعقلها ، وتحركت فى المكان حائرة تسأل نفسها لماذا تشعر بهذا الضعف المخزى تجاهه ؟ وما هذا التيار الغامض الذى يسرى فى جسدها ، وهى ترقبه من نافذة المطبخ ، وهو يبدل قميصه أمام السيارة !

لا شك أنها نوبة جنون طاغية . . فكيف تقاومها ؟

ورجع الرجل بعد قليل ، وشاركها إعداد المائدة ، وراحت هى تتحرك بنشاط وابتهاج، وتستطيب كل ما يحكيه لها عن نفسه وعن رحلاته . . وتضحك لها من قلبها . . وهى لا تكف عن النظر إليه خفية ، ومضت الأوقات سعيدة ، وانتهت السهرة فاستأذن الرجل شاكراً ومودعاً ، فما إن غادرها ؛ حتى شعرت بأنها لا تستطيع النوم بسبب انفعالها ، بما أحدثته هذه التجربة من إثارة لأعصابها ومشاعرها ، فكتبت على ورقة صغيرة هذه الكلمات :

- إذا أردت أن تحضر للعشاء مرة أخرى . . فتفضل بعد انتهاء عملك فى أى وقت! .

ثم ركبت سيارتها واتجهت إلى الكوبرى القديم ، وثبتتها على جداره ورجعت إلى بيتها . . مضطربة ومبتهجة فى الوقت نفسه ! .

وفى الفجر ذهب الرجل إلى الجسر القديم ، وقرأ الورقة ، ووضعها فى جيبه ، وانهمك فى عمله ، وبعد ساعات غادر موقع الجسر القديم ، متوجهًا إلى جسر آخر فى الناحية الأخرى من البلدة ، واتصل بالسيدة الرقيقة تليفونيًّا ليشكرها على دعوتها الجديدة ويبلغها بأنه سيلبيها فى المساء ، ثم يبلغها أنه سيذهب الآن إلى موقع الجسر الآخر ، فهل تحب أن تأتى إليه هناك ، وتجيبه بالإيجاب على الفور . . ويتردد الرجل فى الترحيب بذلك ، إشفاقاً عليه واستشعاراً للمسئولية عنها . . فلقد شهد بنفسه فى مقهى البلدة ، كيف نظر أهلها إلى تلك المرأة الخاطئة التى

أحبت رجلاً متزوجاً . . وكيف أساءوا معاملتها . . وهو لا يريد أن يعرض سمعتها لأية شائبة . . ويكرر عليها السؤال جديد : هل تريدين حقًا المجيء ؟

فتجيبه بحزم ، وقد خارت كل مقاومة لها بأنها تريد أن تذهب إليه بالفعل ، رغم ذلك !

ثم تنهض بحيوية وتركب السيارة إلى البلدة القريبة ، وتدخل أحد متاجرها ؛ لتشترى لنفسها فستاناً جديداً وتتساءل وهى تجربه . . كم مضت عليها من سنوات ، لم تفكر خلالها فى شراء فستان جديد؟

وفى الأصيل تتجه إلى الجسر ، الذى يعمل عنده «قدرها» الطارىء وتلتقى به . . وتراقبه ، وهو يعمل باهتمام شديد ، ويرجع معها إلى البيت ، فتصعد إلى غرفة نومها وترتدى الفستان الجديد ، وتنزل إليه فما أن يراها به حتى يفتح فمه مشدوهًا ، وهو يتمتم :

ـ يا إلهى . . كم أنت جميلة ؟

ويستجيب الغريبان لهذه القوة الطاغية ، التى تدفع كلاً منهما فى اتجاه الآخر ، فيرقصان على أنغام الموسيقى الهادئة فى البيت الخالى . . ويشتد اقتراب كل منهما من رفيقه ؛ حتى يهم بأن يستسلم لأحضانه ، ولكن الرجل يتوقف فى اللحظة الأخيرة ، محاولاً أن يتمالك نفسه ، ومشفقاً على شريكته فى السهرة من سوء العاقبة ، فيراجعها للمرة الأخيرة، فيما يهمان به ويقول لها : إذا أردتنى أن أتوقف ؛ فاطلبى منى ذلك الآن ؟

ولا يفاجأ كثيراً حين تقول له ، وقد غاب العقل ، وذابت الإرادة :

ـ لم يطلب منك أحد أن تتوقف !

وينهل الغريبان من بحر العشق الذى بلا شطآن .

وفى الصباح يجلس الحبيبان اللذان ، جمعت بينهما الأقدار على غير انتظار إلى مائدة الافطار ، وهما يشعران بألفة غريبة ، وكأنما قد تشاركا رحلة الحياة منذ سنوات طويلة . . ويقضيان اليوم كله فى الخلاء خارج البلدة .

ويرجعان فى المساء ويتناولان العشاء ، فيبدأ طائر الفراق القريب يحوم حول سمائهما ، ويلقى بظلاله على المكان . لقد عاشا نشوة الحب الطارىء ، فكانت بهجة سحرية خالصة . . والآن قد بدأ يخالط هذه النشوة شىء من الشجن الثقيل ! وماذا بعد ؟ وماذا سيكون من أمرى بعد رحيلك ؟ وهل ستنسانى ، كما نسيت من التقيت بهم قبلى ، خلال رحلاتك السابقة ؟ وماذا أفعل بحياتى بعد أن ترحل وتنسانى ؟ هل يمكن أن أعود المرأة نفسها ، التى كنتها قبل هذه التجربة ؟

ويقطع عليها الرجل تساؤلاتها واتهاماتها ، صباح اليوم الأخير لهما معاً ، بأن يقول لها فى حزم ، وسحب الهموم الطارئة تتكثف داخله :

تعالى معى !

نعم إن هذا العرض الذى تتمناه ، ولكنه للأسف لا يحل مشكلتها . فلقد أحبت هذا الرجل الغريب حقًّا ، وانهارت حصونها

أمامه بلا مقاومة ، ولكنها لا تستطيع رغم ذلك أن « تذهب » معه بمثل هذه البساطة . . وكما يطالبها هو ؟

ومن بين دموعها الغزيرة ، تقول له : لا أستطيع أن أفعل ذلك ، حتى لو أردته ، فلست أستطيع أن أفعل هذا بولدى وابنتى ؛ لانهما لن يقدرا على مواجهة كارثة هروب أمهما مع رجل غريب . . ولن يحتملا الحياة فى هذه البلدة ، ولا أستطيع أيضاً أن أفعل ذلك بزوجى ، وهو إنسان طيب لم يؤذ أحداً فى حياته . . وتهطل دموعها بغزارة .

ويقف الرجل أمامها حزيناً ومكتئباً ، وهو يكرر عليها نداء الحب بأن تأتى معه ، وترتبط به إلى نهاية العمر ؛ لأنها ليست حباً عابراً فى حياته . . وإنما الحب الحقيقى الذى ساقته الأقدار إلى هذا المكان ؛ خصيصاً لكى يلتقى به . . ويعطيها فرصة أخرى للتفكير والمراجعة ؛ فيقول لها إنه سيقضى بالبلدة بضعة أيام فى فندق البلدة ، ينتظرها فيه إذا غيرت رأيها ، ويخرج من البيت حزيناً منهزماً ، وتودعه من الشرفة الأرضيه نفسها ، التى رأته منها قادماً إليها ، قبل ٤ أيام .

ويتحرك الرجل بسيارته مبتعداً عنها ، وهى ترقبه فى حسرة وألم ، وتتجمد فى الشرفة ترقب الطريق الخالى ، الذى غاب فيه ، إلى أن تظهر فى الأفق بعد قليل سيارة الأسرة التى تحمل لها واقعها ، الذى لا تستطيع أن تهرب منه ، لقد رجع الزوج والأبناء ، وآن للقلب أن يصحو من هذا الحلم الغريب . . ومع عودة الأسرة إلى البيت ، يعود الرشد والعقل ، والإحساس بالمسئولية العائلية للسيدة الرقيقة . .

وتواجه بعد أيام من عودة زوجها اختباراً أخيراً لإرادتها ؛ حين ترى بالصدفة - وهى مع زوجها فى المدينة القريبة - الرجل الآخر ، بطل الحلم القصير ، يقف فى الشارع ينظر إليها فى حسرة صامتة ! فتكاد تضعف للحظات ، وتلحق به ، ثم تسترد نفسها بصعوبة ، وتحتمى بزوجها باكية ومولولة !

وتعيش الزوجة بعد ذلك حياتها الطبيعية ، فلا يجدُّ عليها فيها شيء ، سوى أنها قد أصبحت أكثر ميلاً للوحدة والصمت . . وأكثر انفعالاً بالأغانى العاطفية ، التى يذيعها الراديو القديم فى حجرة المطبخ ، ولا يطرأ عليها طارىء غير مألوف ، إلا أنها قد وجدت نفسها مدفوعة بقوة غامضة لأن تذهب إلى تلك المرأة المنبوذة من أهل البلدة ؛ بسبب ضعفها العاطفى ، لتعتذر لها عن مقاطعتها السابقة لها ، وتصبح صديقتها فتروى لها سرها ، الذى لا تستطيع أن ترويه لسواها ، وتتفهم هى لأول مرة أسباب ضعف هذه المرأة ، الذى لم يغفره لها أحد .

وتمضى السنوات ويكبر الأبناء ، ويتقدم الزوج الطيب فى العمر ويمرض فترعاه زوجته بحنان شديد ، وتقبل يده ، وهو فى النزع الأخير اعترافاً له بعطائه العاطفى لها ، طوال سنوات العمر . . ويستسلم للمصير ، وإلى جواره المرأة التى أحبها بإخلاص .

وبعد رحيله عن الحياة ، يستيقظ الحلم الغريب فى نفس المرأة الرقيقة ، بعد أن تسلل الشعر الأبيض إلى رأسها ، وتبحثُ عن بطله القديم ، فلا تهتدى إلى عنوانه ؛ لأنه قد ترك المجلة الجغرافية منذ

سنوات ، ولا تمضى ٣ سنوات أخرى ، حتى تتلقى طرداً بالبريد من محام لا تعرفه وتفتح الطرد ، فتجد فيه كاميرات ذلك المصور ، الذى جمعت بينها وبينه الأقدار ذات يوم . . وكل مقتنياته والصور التى التقطها لها عند الجسر القديم . . والسلسلة التى تحمل الحرف الأول من اسمها ، وأهدتها إليه خلال الأيام الأربعة ، بل والورقة القديمة التى دعته بها للعودة للعشاء مرة أخرى ، وكتاباً مطبوعاً عنوانه « ٤ أيام من عمرى » ، يروى فيه قصة الحب الحقيقية الوحيدة فى حياته ، ثم رسالة من المحامى ، يبلغها فيه بناء على طلب موكله بأنه قد أوصى بحرق جثمانه ، بعد موته وذر رماده من فوق الجسر القديم ، الذى جمع بينهما فى هذه القصة الغريبة ، وتحزن السيدة الرقيقية لرحيل فارس القلب الوحيد ، وتسعد فى الوقت نفسه ؛ لأنه أقام على حبها ، حتى اللحظة الأخيرة من عمره ، ودون أية محاولة للاقتراب منها أو الاتصال بها .

وبعد بضعة أعوام أخرى ، يوافيها الأجل المحتوم ، ويأتى ابنها وابنتها وصديقتها الحميمة لوداعها الأخير ، ويفاجأ الجميع بوصيتها لهم بحرق جثمانها ، وذر رماده من فوق ذلك الجسر القديم القريب من بيت الأسرة .

ويتعجبْ الابنان لهذه الوصية غير المألوفة ، ويهم الابن بإهدارها ، وبأن يشيع أمه إلى مثواها الأخير حسب الأعراف السائدة ، لولا أنها كانت قد تركت له ولشقيقته رسالة طويلة ، تروى لهما فيها سرها المكتوم وتعتذر عنه ، وتذكرهما فى رسالتها بأنها قد اختارت سعادتها وكرامتها

على حساب سعادتها هى ، وترجوهما الالتزام بتنفيذ وصيتها رغم غرابتها : « لأننى قد أعطيت لكما ولأبيكما الطيب كل حياتى ، وأريد أن أعطى ما بقى من جسدى ، لذلك الرجل الذى ينتظرنى رماد جسده ، تحت ذلك الجسر القديم !

فلا يملك الابنان إلا الاستجابة لرجائها الأخير ، وتنتهى هذه القصة الأمريكية الغريبة ، التى استغرقت مشاعرى فتابعتها باهتمام شديد ، ورويت فيما بعد ملخصاً لأحداثها الناعمة لصديق أديب . . فاستمع إليها بانبهار شديد ، وتأملها طويلاً ، ثم سألنى فى النهاية :

ـ ترى ما «المغزى» ، الذى يخرج به الإنسان من مثل هذه القصة الغريبة ؟ وألا تلاحظ أن الأدب القصصى الأمريكى المعاصر يركز الآن كثيراً على قصص الحب العارض ، التى قد تصادف الإنسان فى أية مرحلة من العمر فيستجيب لندائه ، دون تقدير للعواقب ، وحتى ولو لم يكن فى حياته قبل هذا الحب العارض ، ما يشكو منه ، أو ما يدفعه للاستجابة لمثل هذه المغامرة الطارئة ؟

وتفكرت قليلاً فيما قال ، ثم قلت له فى النهاية . . إننى ألاحظ بالفعل هذا الاتجاه فى الأدب القصصى الأمريكى ، ولا أجد له ما يبرره . . ولكنى أعتقد أن المغزى الحقيقى لمثل هذه القصة الناعمة ، هو أن يزفر الإنسان بعد أن يفرغ من قراءتها هاتفاً :

ـ ربنا ولا تضعنا فى تجربة !

آمين يارب العالمين !

ترانيم فى هيكل الحب والعذاب

ترى لماذا لم أكتب هذه القصة من قبل ، على كثرة ما رويت من ذكريات وتجارب شخصية ؟

هل لأنى مازلت كلما تذكرت مشهدها الختامى ، الذى كنت طرفاً فيه بالصدفة ، أشعر ببعض الخجل من نفسى ؛ لتسرعى فى الحكم على إنسان ، لم أكن أعرف حقيقة ظروفه المؤلمة وقتها ؟ أم لأن الإنسان يضيق دائماً عقله الواعى بالخبرة المؤلمة ؛ فيضغط عليها ؛ لتهبط إلى دائرة اللاوعى عنده ، ويتصور بذلك أنه قد نسيها واستراح منها ! قد يكون هذا السبب أو ذاك ، ولكن المؤكد أيضاً هو أننى ربما تهيَّبت حكاية هذه القصة لحجم ما تحمله من مآس وفواجع ، قد يتردد الإنسان معها فى أن يحكيها ، مخافة أن يتهمه أحد بالمبالغة أو الميلودرامية .

ولأننا لانسى الخبرات المؤلمة كما نتصور . . وإنما تقبع فى دائرة اللاوعى ، تنتظر أى مثير خارجى ، يستدعيها من الأعماق السحيقة ؛ فلقد تلقت هذه الذكرى مثيرها الخارجى ، أو بطاقة الدعوة لها للطفو

فوق سطح الذاكرة منذ أيام، خلال حديث عابر بينى وبين صديق وزميل لى بالأهرام ، أما الحديث فلقد كان تعليقاً من جانب الزميل الصديق على قصة ، نشرتها منذ أسابيع فى بريد الجمعة ، بعنوان : «النظرات اللائمة » ، وأما بطاقة الدعوة لهذه الذكرى القديمة ، فلقد كانت «عبارة » ، قالها هذا الزميل متعجباً فى ختام تعليقه على القصة ، سأذكرها فى حينها .

وكانت القصة التى نشرتها تروى على لسان أب ، يشغل منصباً كبيراً فى أحد الأجهزة السياسية المهمة ، ويقول لى فى رسالته : إن أمه قد غرست فيه منذ الصغر كراهية أسرة أبيه الراحل ، وكراهية أحد أفرادها بالذات ؛ لأنه قد تصدى للأم عقب وفاة زوجها ، وأصر على تقسيم تركته بالعدل ، بينها وبين أبناء الرجل من زوجة سابقة ، على خلاف رغبتها فى الاستئثار بمعظم التركة دونهم ، فكان أن قاطعت أسرة الأب ، واتهمت هذا الرجل بأنه المسئول عن حرمانها وحرمان ابنها ؛ مما كانت تراه حقًّا لها ، وابتعدت بحياتها وبابنها عن أسرة الأب نهائياً ، ونشأ الابن فى أحضان أسرة الأم ، وتعلم وتخرج فى كليته ، وعمل ، وتزوج ، وأنجب ابنة وحيدة ، أصبحت قرة عين أبيها وأمها وصديقتها الأولى .

وتدرجت الابنة فى التعليم ، حتى التحقت بكلية السياحة والفنادق ، وتفتح قلبها للحب ، وبدأت تتحدث ـ كعادتها فى مصارحة أبيها بكل شىء ـ عن زميلها الشهم ، الذى ينال احترام كل زملائها ، وعن رغبتها فى دعوته مع زملائها إلى حفل عيد ميلادها الوشيك ، ويجىء هذا

الشاب مع الزملاء فيكتشف الأب أنه ابن ذلك الرجل ، الذى يعتبره المسئول الأول عن القطيعة بين أمه وبين أسرة أبيه ! ويضيق الأب بذلك كثيراً ، ولكنه يكتم مشاعره ؛ تجنباً لإحراج ابنته فلا تمضى شهور بعد ذلك ؛ حتى يتقدم إليه هذا الشاب طالباً يد ابنته ، فيرفضه بقسوة ويطرده من بيته ، وتتجهم سماء الأسرة ، التى كانت سعيدة بالغيوم .

وبعد تطورات عديدة وغريبة ، يلاحق خلالها الأب بنفوذه هذا الشاب فى كل عمل يلتحق به ، ليبعده عن ابنته بكل الوسائل ، ييأس الشاب نهائيًا من تحقيق حلمه ، ويضطر للهجرة إلى فرنسا واللحاق ببعض أصدقائه المقيمين هناك ، ويسعد الأب بذلك كثيراً ، ويتصور أن القصة قد انتهت نهايتها المريحة ، ويضغط على ابنته بشدة ، لقبول شاب ملائم تقدم إليها ، فيفاجأ باستسلامها لرغبته ، بلا مقاومة ، وقبولها لهذا الشاب بلا حماس ، ويتم عقد قرانها بالفعل ، ثم تشكو الفتاة فجأة من بعض الأعراض المرضية ، ويعرضها الأب على الأطباء ، فتكون بداية لرحلة طويلة من العذاب والآلام .

ويكتشف الأب أن ابنته الجميلة قد امتحنتها الأقدار بالمرض اللعين ، وتبدأ رحلة العلاج المرهقة ، وينجح بعلاقاته واتصالاته فى السفر إلى باريس ، لعلاج ابنته فى أحد المراكز المتخصصة هناك ،ويغادر مطار العاصمة الفرنسية مع ابنته وزوجته ، فيفاجأ بوجود الشاب ، الذى طرده من بيته ، حين تقدم لابنته فى انتظاره ، وبأنه قد رتب لهما إقامة فى مسكن ملائم ، بالقرب من المستشفى ، ثم يرافقهم بعد ذلك ، فى كل

مراحل العلاج ، متفرغاً تماماً لخدمتهم ورعايتهم والتخفيف عنهم . وتصارح الابنة أباها فى مواجهة هذا الشاب ـ قبل أن تدخل المستشفى لإجراء الجراحة الخطيرة ـ بأنها قد عرضت عليه قبل أن يهاجر لفرنسا أن يتزوجها سرًّا ، مادام الأب يصر على رفضه بلا مبرر ، ولكنه أبى لها أن تخرج على طاعة أبيها وأمها ، وأن تصدم أبويها هذه الصدمة المؤلمة ، فكان رفضه للارتباط بها على هذا النحو ، هو السبب الوحيد ليأسها وقبولها بمن رشحه لها الأب ، فازداد احترام الأب لهذا الشاب ، وازداد عمق الجرح ، الذى يخفيه عن ابنته أيضاً فهذا الشاب الآخر ، الذى ضغط عليها لتقبل به ، قد تخلى عنها ، حين علم بحقيقة مرضها وأرسل إليه بورقة طلاقها منذ أيام .

وتكتم الأب الخبر عنها لكيلا يزيد من عمق جراحها ، ثم تدخل الفتاة المستشفى لإجراء الجراحة الخطيرة ، ويسترد الله وديعته الغالية ، فلا يجد الأب سنداً له فى محنته القاسية وغربته ، سوى ذلك الشاب الذى أهانه وطرده من بيته فينهض برجولة وشهامة ، للقيام بالإجراءات الضرورية ، رغم عمق جراحه ، ويقترض من أصدقائه نفقات العودة الحزينة للقاهرة ، ويرجع مع الأسرة وجثمان الحب الموءود لبلاده ، ليؤدى واجبه الأخير تجاه من أحبها ، ثم يختفى من حياة الأب الذى يشعر بالندم الشديد على موقفه السابق منه ، ويكتب إليه راجياً ، مناشدته العودة لزيارة الأب ، الذى أصبح يعتبره الآن ابنه وعزاءه الوحيد .

كانت هذه القصة التى نشرتها ، وعلقت عليها بالأهرام . . . أما

«العبارة» التى استدعت الذكرى القديمة من الأعماق السحيقة ، فلقد جاءت على لسان صديقى - عرضاً - وهو يناقشنى فيها ؛ إذ قال لى متعجباً : أمازال هناك فى الدنيا مثل هذا الشاب الشهم النبيل ؟ فإذا بالقصة القديمة تطفو إلى ذاكرتى على الفور ، وإذا بى أجيبه قائلاً : ألا تذكر زميلنا السابق بالأهرام فلاناً ؟ لقد كانت له قصة درامية غريبة مع الحياة ، تكرر فيها هذا النموذج النبيل نفسه من التضحية وإنكار الذات إلى الحد ، الذى يذكرنا بالقصص الرومانسية القديمة ، التى لا يتصور البعض أنها قد تجرى على مسرح الحياة .

ثم بدأت أروى له ما لم يكن يعرفه من حياة هذا الزميل القديم ، فلقد كان - قبل أن يعمل معنا بالأهرام - طالباً بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وخلال دراسته بها ، التقى بقصة حبه الأولى والأخيرة ، وكانت ابنة وحيدة لأب ، من أسرة عريقة ، ارستقراطى النشأة والتفكير ، قضى زهرة العمر فى خدمة القوات المسلحة ، حتى ارتقى أكبر مناصبها ، وتفرغ بعد المعاش لمجتمع النادى الارستقراطى ، الذى ينتمى إليه . . يقضى فيه معظم أوقاته ، ويستمتع بصداقات نخبة من الشخصيات البارزة ، أما صديقنا القديم . . فقد كانت ظروف حياته ونشأته مأساوية إلى حد كبير ، فلقد كان والده محامياً ، رحل عن الحياة وخلّف وراءه ابنين ، لا سند لهما فى الحياة ، سوى ما يجده أحدهما لدى الآخر من عطف ومساندة ، وفيما عدا ذلك ، فلم تكن لهما جذور عائلية كثيفة ، ولم يعرفا أقارب مقربين لهما ، فعاشا وحيدين تماماً فى الحياة .

وحين التقى صديقى القديم بزميلته هذه فى الجامعة ، تفجر ينبوع الحب والحرمان والوحدة فى قلبه تجاهها بعنف ، وأحبته هى ، وأخلصت له الحب ، وكانت الحوائل بينهما تتمثل فى موقف الأب ، الارستقراطى التفكير ، الذى لن يقبل لابنته زوجاً ، لا يستند إلى أسرة عريقة كبيرة ، أو مال موروث ، أو علاقات عائلية تضاهى علاقات أسرته الكبيرة .

ولكن ذلك لم يثن صديقى عن السعى إلى تحقيق حلم حياته الوحيد ، وتخرج فى كليته مع فتاته فى عام واحد وعمل بالأهرام ، وتقدم للأب ، وسط إشفاق فتاته عليه من الرفض المتوقع ، ولم يخيّب الأب توقعات ابنته ، فرفض يد الشاب الممدودة إليه بقسوة ، وذكَّره بأنه شاب مبتدىء ، لا يملك مالاً ولا عقاراً ، ولا يستند إلى أسرة عريقة كأسرته ، يمكن أن تفتح له الأبواب المغلقة ، ثم نصحه فى الختام نصيحة مؤلمة بأن يبحث له عن فتاة من مستواه الاجتماعى ليرتبط بها !

ورجع الشاب مقهوراً مهزوماً ، وبنبل الفرسان ، نصح حبيبة القلب ألا تخرج عن طاعة أبيها ، وهى ابنته الوحيدة وأمله فى الحياة ، وأن يستسلما لما أرادته لهما الأقدار ، واعداً إياها أن تظل ثمرة قلبه الوحيدة ، حتى ولو لم تجمع بينهما الحياة .

واستسلمت الفتاة لأقدارها ، بعد طول مقاومة وصراع مع أبيها ، وقَبِلَتْ بعد عناء شديد الارتباط بمن رآه والدها ملائماً لها ، من الناحية المادية والاجتماعية ، وسافرت معه إلى مقر عمله كملحق بإحدى السفارات المصرية بالخارج ، وانطوى صديقى الشاب على أحزانه

وآلامه، حتى طبعت شخصيته وملامح وجهه بطابع الأسى العميق، وتشاغل عن آلامه بالعمل ومنافساته ومشاكله .

وبعد فترة ، شعر ببعض الألفة تجاه إحدى زميلاته ، واشتد عليه الإحساس بالوحدة والضياع ، ففكر فى الارتباط بها ، وتوسط الزملاء بينهما ، فكان القبول من الطرفين ، وتم اجتماع الشمل وتزوجا ، ولم تطل تجربتهما فى الزواج أكثر من عام وبضعة شهور ، اقتنعا بعدها بأن كلاً منهما لم يخلق للآخر ، ولم يجد لديه ما كان يأمل فيه من راحة القلب ، وتم الانفصال بينهما فى هدوء وبلا مرارات ، حتى لقد ظلا بعد الانفصال، يتعاملان مع بعضهما البعض كزملاء فى العمل ، بلا غضاضة ولا حساسية، كأنما قد ترافقا فى رحلة عمل ، استمرت لفترة قصيرة ، تقاربا خلالها على نحو ما ثم انتهت الرحلة ، ورجعت العلاقة بينهما إلى طبيعتها السابقة .

وقالت الزميلة التى ارتبطت به إنها شعرت ـ خلال زواجها منه ـ أن قلبه لم يكن معها ، وأنه مازال مشغولاً بالفتاة التى أحبها ، خلال الدراسة ، وفرقت الأقدار بينهما .

وبعد انفصاله عن هذه الزميلة ، شهدت حياته تطوراً مفاجئاً وسعيداً، لعله كان الفصل السعيد الوحيد فى رحلة حياته كلها ؛ فلقد رجعت فتاة القلب من أوربا شبه مريضة ومنهارة نفسيًّا وجسديًّا ، وواجهت أباها برغبتها القاطعة فى الحصول على الطلاق من زوجها ، وذكّرته بأنه هو الذى أرغمها على هذا الزواج ، الذى شقيت به أشد

الشقاء ، وأن من واجبه تجاهها كأب أن يخلِّصها منه ، كما أرغمها عليه من قبل .

ورأى الأب ابنته الجميلة ذابلةً أمامه ، وشاحبة شحوب الموتى ، فاقتنع بخطأ إرغامها على الزواج ممن لم تحبه وسعى للضغط على زوجها لإطلاق سراحها ، وتحمل فى سبيل ذلك تضحيات مادية كبيرة ، وقال له زوجها إنه لا ينكر على ابنته شيئاً من عشرتها له ، فهى جميلة ورقيقة ومهذبة ، ولكنه عاش معها طوال فترة زواجهما ، وهو يشعر أنها بعيدة عنه بقلبها وأفكارها وأحلامها ، وأنه كان يشعر ببعد المسافة بينهما ، حتى وهى ترقد إلى جواره فى الفراش نفسه !

وانتهت هذه الصفحة التعيسة من حياتها ، وفوجىء صديقى القديم بفتاته القديمة، تتصل به ذات يوم ، فما إن سمع صوتها ، حتى اضطرب نبضه ، وتعالى وجيب قلبه ، حتى ليكاد يسمعه من يجلس إلى جواره .

والتقى بفتاته فى حديقة النادى ، وقالت له بحسم إن كلا منهما قد تجرع التعاسة ؛ لأنه قد استسلم لأقداره دون مقاومة ، وإنهما الآن أمام فرصتهما الأخيرة ؛ للأخذ بزمام حياتهما ، ولابد لهما أن يتزوجا الآن ، سواء قبل بذلك والدها أم لم يقبل ، وسألته : هل أنت على استعداد لمواجهة هذا الموقف ؟

وبقوة الأمل وحدها ، أجابها بالإيجاب ونفذ وعده لها ، واتصل بالأب

الأرستقراطى يطلب مقابلته ، والتقى به فى النادى ، وطلب منه يد ابنته مرة أخرى، وقال له إنه قد جنى على ابنته بإرغامها على الزواج ممن لا تحب ، وعليه هو أيضاً حتى تجرع التعاسة فى زواج فاشل ، وأن الأقدار قد أتاحت لهما فرصة أخرى لجمع الشمل، ولقد تحسنت ظروفه المادية الآن كثيراً عما كانت من قبل ، فلقد أصبحت له شقة لابأس بها ، وأصبح دخله أكبر ، ويستطيع أن يضمن لابنته بعض ما يرجوه لها من حياة لائقة .

واستمع الأب إلى «خطبة» الشاب الحارّة بين يديه فى جمود ، ولم يزد عن أن قال له ـ فى النهاية ـ إن ظروفه مازالت دون ما يطلبه لابنته ، و إنه وقد تعلم من درس التجربة الماضية ، ألا يرغمها على زواج جديد ، فإنه مازال على موقفه من عدم الترحيب به ، ولكنه يترك لابنته أن تختار حياتها هذه المرة ، وفقاً لإرادتها ، دون اعتراض منه ، ودون حماس أيضاً وسيترك للأيام أن تقول كلمتها .

ورجع الشاب إلى فتاته برد الأب المتحفظ ، فأدركت أنه لن يساعدها بشىء فى زواجها بمن أرادت ، ولكنه أيضاً لن يعترض طريقها ؛ لكيلا تحمله مسئولية تعاستها ، «وترجمت» له موقف الأب ، الذى غاب عن فتاها تقديره ، فقالت له إنه يقول لهما بوضوح : افعلا بحياتكما ما تشاءان ، ولكنى لن أشهد لكما زواجًا ، ولن أساعدكما بشىء ، ولن أدعو معارفى وأصدقائى من علية القوم للاحتفال بارتباطكما ، وأنهت حديثها ، بأن طلبت من فتاها أن ينهضا الآن على الفور إلى مكتب

المأذون ؛ ليعقد قرانهما ، استعداداً لأن تحمل حقيبتها إلى شقته الصغيرة ، ويبدآ معاً حياتهما السعيدة بلا احتفال !

ورضخ الشاب لرغبة فتاته ، وانتظرها فى سيارته الصغيرة ، أمام بيت أبيها حتى رجعت بحقيبة ملابسها ، وتوجها إلى المأذون ، ومن عنده إلى مسكنه الصغير ، ولأنه لم يكن لها أثاث زوجية ـ حيث عقد قرانها ـ فسافرت مع زوجها إلى أوروبا على الفور ، فلقد اكتفت بأثاث مسكنه البسيط ، وأضافت إليه لمساتها الأنثوية الساحرة .

وهجع الحبيبان أخيراً ، كلا منهما إلى صدر الآخر وتحقق الحلم الكبير فى حياتهما . . واستردت ثمرة القلب الجميلة صحتها ونضارتها ، خلال وقت قصير ، أما صديقى الشاب . . فلقد جرت دماء العافية فى عروقه ، واسترد وجهه الابتسامة المطمئنة ، التى غابت عنه طوال السنوات الماضية !

عرفت زميلى القديم ـ فى هذه المرحلة من حياته ـ شاباً طيباً مقبلاً على الحياة ، راغباً فى تعويض ما فاته منها فى التعاسة والشقاء ، كما شهدته أيضاً ، وقد أصبح أكثر تسامحاً فى علاقات العمل ، وأكثر رغبةً فى العيش بسلام مع الآخرين ، ثم مضت ثلاثه أعوام ، وفوجئت به ، وكأنه قد تحول فجأة إلى شخص آخر ، غير الزميل والصديق ، الذى عرفته من قبل ، ولأنه كان كتوماً بطبعه . . فلم أفهم سر تغيره ، ولكنى لاحظت عليه انه قد أصبح شديد الانطواء على نفسه ، لا يكاد يكلم أحداً أو يقترب من أحد ، ولا يتحدث ـ إذا تحدث ـ إلا بلهجة شبه

باكية، وكان من بين زملائنا بالأهرام ، زميل عاصر قصته من البداية مع حب عمره ، ولكنه كان فى ذلك الوقت فى أجازة دون مرتب من العمل ، ويعمل مستشاراً إعلامياً لمصر فى إحدى دول الغرب ، ويبدو أنه قد كتب إليه فى غربته ، يرجوه فى أمر مهم لا اعرفه ؛ لأنه كان يترقب عودته لمصر فى أجازته السنوية بلهفة شديدة ويعلق آمالاً غامضة على هذه العودة!

ولم أعرف بتفاصيل هذه المرحلة من حياته ، إلا من هذا الصديق المشترك بعد ذلك بسنوات ؛ فلقد روى لى أنه رجع فى أجازته ، فإذا بصديقنا هذا يطلب منه ـ وهو يختنق بالألم والعذاب ـ أن يتدخَّل بينه وبين زوجته ، التى هجرت بيت الزوجية فجأة منذ أسابيع ، ورجعت لأبيها ، وأصرت على طلب الطلاق منه ، دون إبداء أية أسباب!

وقال له ـ بين ما قال ـ بلهجته الباكية : إننى مستعد لأن أجيب كل طلباتها ، فإذا كانت الشقة صغيرة ، ولا تليق بها ، فإنى على استعداد لأن أبيعها وأبيع سيارتى ، واشترى بثمنها شقة أكبر وأفضل ، وإذا كنتُ قد أخطأت فى شىء معها ، دون أن أدرى . . فإنى على استعداد ، لأن أعتذر لها عنه ، وأن أعدها بعدم تكراره ، وإذا كانت متعبة الأعصاب ، وتريد أن تنفرد بنفسها بعض الوقت . . فإنى على استعداد لأن أترك لها مسكن الزوجية ، وأقيم فى شقة أبى القديمة بضعة شهور ؛ حتى تسترد هدوء نفسها وأعصابها ، وإذا كان مصروف البيت الذى أعطيه لها قليلاً . . فإنى سوف أعمل عملاً إضافيًا ، وأسلّم لها كل مرتبى وأجرى

الإضافى ؛ لتفعل بهما ما تشاء ، فقط أريدها أن تصارحنى بما تنكره علىَّ لأغيِّرَهُ ، واعتذر لها عنه ، ولكنها لا تتكلم ، ولا تجيب عن تساؤلاتى ، ولا ترد عليها ، سوى بالبكاء الصامت الطويل ، الذى تختتمه بهذه الكلمات المحيرة ، التى لا أفهمها ، وهى أن حياتنا معًا قد انتهت عند هذا الحد . . وأنها إرادة اللَّه ، التى ينبغى لنا أن نرضخ لها ، دون اعتراض ، وأنها تتوقع منى أن « أكرمها » بالطلاق ، دون إلحاح بالسؤال عن الأسباب ، كما أكرمتها من قبل بالاستجابة لرغبتها فى الزواج !

واستمع الصديق المشترك لما قاله له صديقه حائراً وعاجزاً عن الفهم ، وزار زوجة صديقه فى بيت والدها ، وسألها عن أسبابها لطلب الطلاق ممن أحبته وأحبها ؛ فأجابته بسيل من الدموع الصامتة ، ولم تزد عن أن قالت له إنها ترجوه بحق صداقته لزوجها ولها أن يقنع صديقه بالطلاق فى أقرب فرصة ، دون إلحاح بالسؤال عن الأسباب !

وازداد الصديق المشترك حيرة وتعجباً ، وكرر معها المحاولة مراراً وتكْراراً ؛ حتى ضغط عليها ذات مرة بالسؤال : إنه يحبك ، كما لم يحب رجل امرأة من قبل ، أفلا تحبينه أنت كذلك ؟! .

فانفجرت بالبكاء لفترة طويلة ، ثم تمالكت نفسها أخيراً ، وقالت له بهدوء مريب : بل أحبه كما يحبنى ، وأكثر ، ولم أحب أحداً سواه ، ولن أحب أحداً بعده . . ولهذا فإنى أريد الطلاق ! .

وبلغت الحيرة بالصديق المشترك قمتها ، وأراد أن يستعين بوالدها على

فهم ما استعصى عليه فهمه ، فأشاح الرجل عنه بوجهه قائلاً : «لا تشركونى فيما لم اشترك فيه من البداية ، ولا تَسلْنى عن أى شىء » .

ورغم جفاء الرد . . فلقد لاحظ الصديق أن لهجة الأب الارستقراطى المتكبر يخالطها شىء من الانكسار غير المفهوم ، ورجع إلى صديقه المنتظر بالخيبة والألم . . ولم يملك إلا أن ينصحه بالاستجابة لطلبها ، عسى أن تراجع نفسها بعد حين ، وترجع إليه فى قادم الأيام ! .

واتفق الطرفان على إجراء الطلاق فى مكتب المأذون ، الذى جمع بينهما من قبل . وروى لى الصديق المشترك ، الذى شهد على الطلاق ، أن اتمام الإجراءات كان مأساة مبكية بكل المعنى ، فلقد جلس الزوجان أمام المأذون ، منكّسىْ الرأس دامعيْن ، فما إن بدأ المأذون حديثه التقليدى إليهما ، طالباً منهما مراجعة النفس ، قبل الإقدام على الطلاق الذى هو أبغض الحلال إلى الله ، حتى أجهش الزوجان بالبكاء ، وحين تمالك الزوج نفسه بصعوبَة ، قال للمأذون فيما يشبه الولولة : قل لها هذا الكلام ؛ فهى التى تتمسك بالطلاق ، ولا تصارحنى بالسبب ، فما إن حاول المأذون ان يتوجه إليها بالحديث مناشداً ، حتى عجزت الزوجة الشابة عن احتمال الموقف أكثر من ذلك ، وانهارت مغمى عليها ، وساد الرعب الجميع ، وأجريت لها الإسعافات الضرورية .

واستعادت الزوجة وعيها بعد قليل ، وقالت للمأذون إنها ترجوه ألا يعذبها أكثر من ذلك ، فنظر إلى الزوج مستأذنًا ، وأشار له الزوج

بالموافقة ، وبدأ المأذون مهمته الثقيلة ، وانتهى مشهد الطلاق الباكى بتفاصيله الغريبة هذه ، وبدأت مرحلة جديدة ومريرة من حياة هذا الزميل القديم ، وازداد خلالها تقوقعاً على نفسه ، ونفوراً من الحياة .

وفى هذه المرحلة من عمره ، اقترب منى ، واقتربت منه كثيراً ، ولكنه لم يصرح لى أبداً بأحزانه وآلامه ، وليته كان قد فعل ، إذًا لالتمست له كل العذر ، فيما كان ينكره عليه بعض زملائنا بالدسك المركزى بالأهرام الذى كنا عضوين به وقتها ـ من توتر مكتوم وسرعة التهيج العصبى ، استجابة لأى استفزاز ، وشدة انطواء على النفس ، حتى فسَّره البعض خطأً بالتعالى والكبرياء !

أما زوجته السابقة فلقد اختفت من حياته ، ومن مجتمع النادى نهائياً ، وانقطعت أخبارها عنه وعن الجميع ، وعجز حتى أقرب المقربين إليها عن تفسير سبب طلاقها من زوجها ، الذى أحبته واختارته دون غيره من الرجال . غير أن الأسرار لا يطول إخفاؤها إلى الأبد ، مهما حاول أطرافها ذلك . .

وذات صباح كئيب ، عرف صديقى القديم سر إصرار زوجته على الطلاق منه والعودة إلى أبيها ، رغم اعترافها له بأنها مازالت تحبه ، ولا تنكر عليه شيئاً كزوج وحبيب وشريك للحياة .

ففى ذلك الصباح ، قرأ الصديق نعى فتاته الجميلة الرقيقة بصفحة الوفيات بالأهرام ، ورأى صورتها تتصدر النعى المؤلم الطويل !

ولست أعرف ماذا جرى له ، حين رأى نعى فتاة أحلامه فجأة بالصحيفة ، التى يعمل بها ، بعد أقل من عامين فقط من طلاقه لها ، ولكنى عرفت من الصديق المشترك أنه أدرك فى هذه اللحظة فقط لماذا تمسكت فتاته بالطلاق منه ، وابتعدت عنه نهائياً ، وغابت عن كل مكان يحتمل أن يراها ، أو يلتقى بها فيه .

لقد كان طلاقاً بدافع الحب والتضحية ، وليس بدافع البغض والكراهية !

فلقد اكتشفت بالصدفة وهى زوجةٌ له ، إصابتها بالمرض اللعين ، وأدركت على الفور أن موارد زوجها لن تسمح له بالإنفاق على علاجها منه ، وأنه سوف يشعر بالعجز القاتل تجاهها ، ولن تسمح له كبرياؤه بقبول مساعدة أبيها المادية له فى علاجها ، وتحمل نفقاته الباهظة ، فلم تجد مفراً أمامها من أن ترجع إلى رعاية أبيها ، الذى ابتعدت عنه ، حين تزوجت فتاها على غير رغبته ؛ ليواجه بإمكاناته المادية وعلاقاته ونفوذه محنة علاجها ، فرجعت إليه ، وصرحت له بمرضها ، وطلبت منه تكتمه عن زوجها ، وحصلت على الطلاق .

وتفرغ الأب لمحاولة إنقاذها ، واصطحبها للعلاج فى الخارج بضعة مرات ، وقضت معه بإحدى الدول الأوروبية عدة شهور ، أجريت لها خلالها جراحة خطيرة ، ثم انتهت القصة نهايتها الحزينة ، وكان طلبها الأخير من أبيها وهى فى آخر مراحل مرضها هو ألا يسمح لزوجها السابق بأن يراها ، وهى على هذه الحالة إذا علم بحقيقة مرضها ، كما

طلبت منه أيضاً أن يسمح له حين يحم القضاء بأن يقف إلى جواره فى سرادق العزاء ؛ ليتلقى العزاء فيها معه ، لأنه وأبوها ، هما أقرب البشر إليها فى هذه الدنيا الغادرة ! .

ولست أعرف هل نفذ صديقى القديم هذه الوصية المؤلمة أو لم يفعل .. ولكنى أعرف فقط أنه ومن ذلك الحين قد أصبح إنساناً آخر ، غير الذى كان ، وأن علاقته بالحياة والبشر قد تعقدت إلى حد كبير ؛ حتى وصفه بعض زملائنا بالدسك المركزى بالأهرام ، بأنه إنسان صعب التعامل معه ، وأنه من الأفضل للآخرين ألا يتجاوزوا معه حدود علاقة العمل المتحفظة ! .

وللأسف الشديد .. فلقد كنت واحدًا ممن استجابوا لهذه النصيحة القاسية ، وتحفظوا فى علاقتهم معه ؛ تجنباً للاحتكاك به ، بعد أن أصبح شديد التوتر وسريع الالتهاب لأى بادرة تعامل ، قد يسىء فهمها . وقد أكسبه انطواؤه على نفسه وتقوقعه الشديد ، مظهراً كاذباً من التكبر والاستعلاء ، فنفر منه كثيرون ، وحل الصمت والجفاء المكتوم بينه وبين معظم من حوله ، ولو كانوا قد عرفوا سر تقوقعه وعزلته وفهموها حق فهمها ، لما ظلموه ، ولما ظلمته فى أفكارى ولالتمسنا له جميعاً كل العذر فيما ينعكس على تصرفاته أحياناً من توتر شديد ، ولحاولنا التخفيف عنه ، بدلاً من مضاعفة آلامه وأحزانه ، حتى لقد شكا لزميلة لنا بالأهرام ربما كانت الوحيدة التى استراح إليها فى المرحلة الأخيرة ما يلقاه من جفاء الآخرين ، وتساءل بلهجته الباكية حائراً :

لا أعرف ماذا فعلت للناس ؛ حتى يسيئوا بى الظن دائماً ، ويتجنبوا التعامل معى ! .

ولم تنته هذه الدراما الإنسانية عند هذا الحد ، رغم كل ما شهدته من فواجع وغرائب وإنما جاء أيضاً فصل الختام الدرامى ، الذى كنت طرفاً فيه من حيث لا أدرى ، والذى مازلت أشعر بسببه ببعض الإثم تجاه هذا الصديق المعذّب ، فلقد كان نظام الدسك المركزى بالأهرام الذى كنا نعمل به ذلك الوقت يقسم مسئولية الإشراف على طبعات الأهرام إلى ثلاث فترات ، تبدأ الأولى من الحادية عشرة صباحاً إلى الرابعة ، وتبدأ الثانية من الرابعة إلى التاسعة مساء وتبدأ الثالثة من التاسعة إلى الثالثة صباحاً .

وقد كنت المسئول عن الفترة الوسطى فى ذلك اليوم ، وكان هذا الصديق القديم هو المسئول ، الذى سيتسلم منى الإشراف على طبعة الأهرام الثانية فى التاسعة مساء حتى نهاية السهرة . ولظروف عمل طارىء ، كنت قد اضطررت لأن أبدأ عملى بالأهرام ذلك اليوم فى السابعة صباحاً ، وقضيت فترة الصباح حتى الرابعة مساء فى أداء عمل كُلِّفت به ، ثم تسلمت نوبتى فى الدسك من الرابعة مساء ، فما أن اقتربت الساعة من التاسعة ، حتى كانت قواى قد خارت تماماً ، وترقبت بلهفة شديدة حضور زميلى هذا ؛ ليتسلم منى العمل ، وكان هو معروفاً بيننا بدقة مواعيده وشدة التزامه .

ولكن الساعة بلغت التاسعة ، ولم يظهر بعد ، ثم التاسعة والنصف

ثم العاشرة ولم يأت ! وحين بلغت الساعة الحادية عشرة مساءً ، كان الإعياء قد بلغ منى أقصاه ، وشعرت للأسف الشديد بالحنق على هذا الزميل الغائب ، واتصلت بالزميل مدير الدسك المركزى وقتها فى بيته ، لأنهى اليه الموقف ، وأبلغه أننى قد بدأت يومى من السابعة صباحاً ، ولم تعد بى أية قدرة على الاستمرار فى العمل ، وإننى أخشى إذا واصلت العمل أكثر من ذلك ، أن أخطىء أو أفقد القدرة على التركيز وحضور الذهن ، ثم أنهيت حديثى إليه بأن زميلنا فلاناً ، لم يأت لاستلام السهرة منى ، وأن هذا أمر غريب ، لم يحدث من قبل من جانبه ، أو من جانب أى زميل لنا ، ولابد أن هناك ما منعه من الحضور ، ولكنى أطلب بديلاً آخر الآن ، لاستلام العمل منى ، قبل أن أفقد القدرة نهائيًا على العمل ! .

وتعجب الزميل لتخلف صديقى القديم عن موعد العمل كثيراً ، ووعدنى بتدبير البديل فى أقرب فرصة ، فما إن اقترب الليل من منتصفه حتى كان زميل آخر لنا قد وصل مشكوراً من بيته ، ليتسلم منى مسئولية السهرة ، وهرولت راجعاً إلى البيت ، وما إن بلغته حتى دخلت الفراش ، واستسلمت لنوم كالغيبوبة .

وكان اليوم التالى هو يوم الجمعة ، وهو يوم عطلتى الأسبوعية ، فقضيته فى البيت ، ولم أرجع للعمل إلا لاستلام نوبتى بالدسك فى الساعة الرابعة عصر يوم السبت ، فما إن دخلت صالة التحرير بالدور الرابع من الأهرام ؛ حتى لاحظت أنها شبه خالية على غير العادة ، وما

إن جلست إلى مائدة الدسك ، وبدأت أقرأ بعض « بروفات » الأخبار ؛ حتى فوجئت بعدد كبير من الزملاء يدخلون إلى الصالة واجمين ، وسألت عن الخبر ؛ فأجابنى أحدهم بأنهم عائدون جميعاً من وداع زميلنا الراحل الشاب فلان !

يا إلهى . . زميلى فلان ، الذى كان ينبغى أن يأتى مساء الخميس ؛ ليتسلم منى السهرة ولم يحضر ؟

وجاءنى الجواب : نعم .

زميلى فلان . . الشاب المملوء صحة وشباباً ، والذى لا يدخن ولا يشرب ولا يسهر فى غير العمل ، ويحرص على أداء التمرينات الرياضية صباح كل يوم فى النادى ، ويجرى حول الملعب عشر دورات كاملة كل يوم ؟ .

وجاء الجواب كالصفعة : نعم !

يا ربى . . زميلى فلان . . الذى شعرت ـ ياحماقتى وجهلى ـ بالحنق عليه ، لأنه قد أخلف موعده معى ، وتركنى أواصل العمل من السابعة صباحاً حتى منتصف الليل . . يا إلهى لماذا لم أتصور أن هناك ما عاق حضوره فى موعده ، أنه لم يكن له ذنب ولا جريرة فى تخلفه الاضطرارى هذا ؟ .

لقد ظلمته كما ظلمه غيرى ، وفاتنى حتى وداعه ، والاعتذار له عن سوء ظنى فيه تلك الليلة مساء الخميس ، وضقت بنفسى وانهلت عليها

لومًا وتقريعًا ، وشعرت ببعض الذنب تجاه هذا الزميل ، الذى عاش مظلوماً ومات مظلوماً ، وشاركنا جميعاً من حيث لا ندرى فى مضاعفة آلامه وتعاسته . . . غفر الله له ولا غفر لنا أو سامحنا ، فيما أسأنا إليه به .

أما تفاصيل مشهد الختام الأليم فلقد عرفتها من الزملاء فيما بعد . . فلقد استعد زميلى القديم للخروج إلى عمله عصر يوم الخميس ، ففتح دولاب ملابسه ، وأخرج القميص المكوى النظيف ، الذى سيرتديه ووضعه فوق فراشه ، ثم دخل إلى الحمام ، وملأ البانيو بالماء ؛ وغطس فيه ليستحم ويجدد نشاطه ، قبل الذهاب إلى العمل ففاجأته ـ وهو الذى لم يمرض من قبل ـ نوبة قلبية قاتلة وضعت السطر الأخير فى قصته مع الحياة ، أو مأساته معها ، وفاضت روحه الطاهرة المعذبة ، وهو فى البانيو .

ولاحظ الجيران يوم الجمعة أن صوت التليفزيون مسموع فى مسكنه منذ ظهر اليوم السابق ، حتى فى فترة انقطاع الإرسال ؛ فتشككوا فى الأمر ، واتصلوا بالأهرام ليبلغوه بشكوكهم ، فأوفد الأهرام أحد محرريه إلى قسم الشرطة ، التابع له مسكنه ، واصطحب ضابطاً وبعض الجنود إلى هناك ، ووجدوا الصالة مضاءة ، وصوت التليفزيون مسموعاً ، ولا أحد يجيب النداء ؛ فحطموا الباب ودخلوا إلى المسكن ، فوجدوا صاحبه بين يدى ربه فى بانيو الحمام ، من اليوم السابق .

ولم يعرف أحد ممن شهدوا مشهد الختام الأليم ، وتأثروا به وبكوا صاحبه إن هذا المشهد لم يكن سوى فصل الختام الحزين فى مأساة دامية من مآسى الحياة ، انطوت به صفحة هذا الإنسان المعذب ، بعد أقل من عامين فقط من انطواء صفحة شريكته فى الحب والعذاب .

ومازلت حتى الآن كلما تذكرت مأساة حياته وحبه ونهايته المؤلمة للطرفين معاً ، أشعر بالأسى لصديقى القديم ، وباللوم لنفسى لمشاركتى من حوله فى عدم فهمنا لظروفه ، وعدم التماسنا الأعذار له فى الوقت المناسب .

أفيكون هذا الإحساس بالذنب هو المسئول عن أنى لم أكتب هذه القصة المؤلمة . . رغم ما كتبت من ذكرياتى ، أم يكون الإشفاق من ألا يصدقها أحد ، هو سبب إحجامى عن روايتها .

لقد قبعت هذه الذكرى المؤلمة فى الأعماق طويلاً ؛ حتى ظننت أنى قد نسيتها ، ثم جاءت « عبارة » زميلى العارضة فكانت بطاقة الدعوة التى استدعتها من غياهب النسيان ، وكان أن رويت له القصة الحزينة ؛ لأؤكد له أنه يجرى فى الدنيا أحياناً ما يجرى فى مآسى الأفلام الرومانسية الناعمة وأكثر ، وأن فتاة صديقى القديم هذا قد طلبت الطلاق منه ؛ لكى ترفع عنه - وهى أدرى الناس بحساسيته - حرج ما كان سيشعر به من عجز قاتل تجاه تكاليف علاجها الباهظة ، وآثرت أن تموت بعيدة عنه ؛ لكيلا يراها فى مراحل المرض الأخيرة المؤلمة ، وتركت له بعد أن غادرت الحياة العذاب والآلام ، فلم يطق البعد طويلاً عنها ، ولحق بها

بعد أقل من عامين ، وهو أكثر ما يكون صحة وفتوة وشباباً ! .

فهل ترانى قد أقنعت صديقى ، الذى تساءل متعجباً عن وجود أمثال هذه النماذج البشرية الجميلة والنبيلة فى الحياة . . بوجودها فعلا ، رغم كل ما يحيط بنا من قبح . . وأنانية ؟

وهل ترانى قد اقنعتك أنتَ أيضاً بذلك ؟

وهكذا كل الناس دائماً يا صديقى !

تجد منهم من تتحكم فيه مشاعره وأحاسيسه وانفعالاته فلا يخفى حباً إذا أحب . . ولا ألماً إذا تألم . . ولا غضباً إذا غضب .

وتجد منهم كذلك من لا يسمح لغير أحكام العقل وحده بأن تتحكم فى مسار حياته كابتاً مشاعره وأحاسيسه فى صدره . وقد يغلى كالمرجل من الداخل فلا ترى أثراً لذلك على وجهه أو سلوكه ، وقد يحب فلايفصح عن حبه ، وقد يتعذب فلا يحس الآخرون بعذابه .

وبين هاتين الشخصيتين يتأرجح غالباً بقية البشر، وتختلف درجات سيطرة عقولهم على مشاعرهم ودرجات تمرد هذه المشاعر على العقول ، ويختلفون فى ذلك ويتفاوتون، ولكنهم يتفقون فى شىء واحد، هو أن لهم جميعاً مشاعر وأحاسيس يغالبونها فيسيطرون عليها فى بعض الأحيان، وتغلبهم فتسيطر عليهم فى أحيان أخرى .

وفى هذه الأسرة الصغيرة الحائرة ، اجتمع النموذجان وتفاعلا وتأثر

كل منهما بالآخر وأثر فيه ، فالأخت الكبرى فتاة جميلة متزنة تجيد التحكم فى انفعالاتها ، وتأخذ نفسها بالشدة دائماً فلا تسمح لمشاعرها وأحاسيسها بأن تتحكم فى حياتها وعلاقاتها بالآخرين، أما الأخت الوسطى فهى فتاة متأججة المشاعر والأحاسيس، تتأثر بكل شىء، وتنفعل به ولا تخفى انفعالاتها وأحاسيسها عمن حولها .

وماذا يدعوها فى رأيها لأن تفعل ذلك والقلب غض والمشاعر بريئة ، والأحلام عادلة ومشروعة ، وبماذا تحلم فتاة فى سنها وجمالها سوى بفارس القلب الذى يدك حصونه ، ويستأثر بما يغلى به مرجل مشاعرها ؟ أما الأخت الصغرى فطفلة صغيرة ترقب الاثنتين، وتتأثر بشخصية كل منهما بدرجات متفاوتة .

فإذا كانت الحياة قد تجهمت فى وجه الأسرة الصغيرة بعد موت الأب ، واضطرار الأسرة للانتقال من بيتها الكبير؛ ليقيم فيه الابن الأكبر للأب من زوجة سابقة، وفقاً لقانون الميراث فى مجتمعهم ، ففى تعاطف أفراد الأسرة فيما بينهم بعض ما يعوضهم عن تجهم الحياة ، وفى قلوب الأهل أيضاً بعض السلوى وبعض العزاء ، فلقد قدم أحد أقارب الأم الأرملة لها بيتاً صغيراً فى ضيعة أخرى لتقيم فيه مع بناتها الثلاثة .

وجاء الابن الأكبر مع زوجته المتعجرفة ؛ ليتسلم البيت بكل ما فيه، فلم تنس الزوجة الغازية أن تحصى حتى الأدوات الفضية إحصاءً دقيقاً لتتأكد من وجودها كاملة قبل مغادرة الأم الحائرة وبناتها الثلاثة للبيت ، أما وصية الأب لابنه الأكبر بأن يساند أخواته الثلاثة بمبلغ كريم كل

سنة، بعد أن لم يبق لهن ولأمهن سوى معاش سنوى بسيط ، فلقد تلاشت فى هواء أطماع الدنيا الغادرة ، وتحملت الأسرة الضائعة ، فى صبر وصمت مشقة تجهم السماء بعد سابق صفائها ، وأمضت الأيام الأخيرة لها فى بيت الذكريات على مضض من أسرة الأخ الأكبر .

ولم تلمع فى غيوم السماء خلال هذه الفترة الكئيبة من حياتها سوى هذا النجم اللامع على استحياء . . شقيق الزوجة المتعجرفة الذى جاء إلى البيت قبل أن تغادره الأم وبناتها ، فخفق له قلب الابنة الكبرى وخفق لها قلبه ، وراقبت الأم والابنة الصغرى بذور المشاعر تنمو بينهما بأمل وعطف ورجاء ، غير أن شقيقته المتعجرفة، صدمت أحلامهما بحرصها على أن تؤكد للجميع بفظاظة أن أمها ترجو له عروساً ارستقراطية ثرية ، وأنه لو خالف إرادتها فى ذلك فلسوف تحرمه بلا تردد من ميراثها .

ويتسلل القنوط إلى القلوب الجريحة ، وترحل الأسرة إلى مقرها الجديد على وعد من الشاب بأن يزورها هناك ، وتلح الابنة الوسطى المتأججة دوماً بمشاعرها على أختها الكبرى بالسؤال عما جرى بينهما، وهل صارحته بمشاعرها تجاهه، وهل نالت منه وعداً بالارتباط . . وهل يتمسك بها ضد إرادة أمه المتعجرفة ، فلا تجد الأخت الكبرى جواباً تشفى بها غليلها، فلقد أحبته ما فى ذلك شك ، ولكنها لم تصارحه بالحب كعادتها فى كتمان مشاعرها، ولقد أحبها لا جدال فى ذلك ، غير أنه لم يجد الفرصة للاعتراف لها بحبه . . وهى بطبيعتها المتحفظة تكاد

تُنكر على نفسها هذا الحب أو ترفض الاعتراف به ، وتنتظر أن تجىء المبادرة دائماً من الطرف الآخر .

وتصل الأسرة إلى بيتها الصغير، وتتواءم بصعوبة مع حياة التقشف الجديدة . «وعقل» الأسرة المدبر هو هذه الابنة الكبرى الرزينة، التى تمسك حسابات البيت، وتحرم نفسها وأسرتها من بعض ما اعتادته من ترف فى حياتها السابقة ، ولا شىء يخفف عناء الحياة عنها سوى الأمل الصامت فى قلبها، أن يجىء الفارس الذى وعد بالمجىء ذات يوم قريب .

وفى حياة الأسرة الجديدة يظهر ذلك الرجل الشهم الذى يقيم بالجوار، ويمتلك مزرعة كبيرة يعيش فيها وحيداً مع أم زوجته الراحلة ، لقد جاء للترحيب بالجيران الجدد فخفق قلبه لرؤية الابنة الصغرى بشدة، وأحبها فى صمت ، أما هى فلقد خفق قلبها لفارس آخر من الجيران الجدد ، واندفعت وراء مشاعرها، فأعلنت للجميع حبها له وسعادتها بالقرب منه ، وراقبت الأم الحزينة الأمل المكتوم فى صدر ابنتها الكبرى بإشفاق ، وسعادة ابنتها الصغرى الصاخبة بخوف من المستقبل، أما الجار الشهم الجديد فلقد انطوى على حبه الصامت راجياً لها السعادة مع من أحبته ، مكتفياً بمراقبتها والابتهاج «الحزين» من أجلها .

ومضت الأيام بغير ان يجىء فارس الابنة الكبرى أو يبعث بكلمة ، وترامت الأنباء بأنه قد ذهب إلى العاصمة، وتناسى أمر الفتاة التى

تعلقت به وتمنته لنفسها ، وحاولت الأخت الوسطى أن تدفعها حتى للشكوى والأنين من ضياع الحب وانعدام الأمل فيه ، لكنها كعهدها فى التحفظ فى إبداء مشاعرها ، تألمت فى صمت ، كما أحبت فى من قبل فى صمت ، وكان أقصى ما باحت به حين ألحت عليها أختها ، أن قالت لها إنه لم يرتبط معها بخطبة ولا بوعد ، وليس من حقها أن تنتظر منه ما لم يعد به ، وحتى لو رجت ذلك ، فماذا فى ظروفها الحزينة ما يغرى بها شاباً مرموقاً كهذا الشاب ، وهى بلا مال ولا سند !

وبقدر ما أسفت لها أختها بقدر ما سعدت هى بحبها الصريح لفتاها الوسيم . . ولم يغب عنها أيضاً حب ذلك الجار الشهم لها ، فحملت له أيضاً بعض الأسف وكل الاحترام .

لكن القلب البرىء تلقى هو أيضاً طعنة غادرة بعد قليل ، فلقد غادر الشاب الوسيم المنطقة كلها فجأة إلى العاصمة ، بغير أن يفسر لها هجره المباغت لها سوى بأنه مضطر للسفر فوراً بلا عودة . وتصدع القلب الرقيق للغدر المفاجىء ، وأطلقت الابنة الوسطى لأحزانها العنان على عكس ما فعلت شقيقتها حين تصدع هى الأخرى قلبها ، فبكت وانتحبت وولولت ومرضت ، ولكنها رغم كل ذلك لم تفقد حبها للفتى الوسيم والتمس له قلبها دائماً الأعذار !

وعبثاً حاولت الأخت الكبرى وحاول الجار الشهم المعذب بحبها الصامت أن يلفت نظرها إلى ما فى سلوكه المباغت معها من خسة ،

تكشف عن حقيقة أخلاقياته ، فتمسكت دائماً بالثقة فيه ، والأمل الخادع فى أن تكذب الأيام ظنونها .

ولمعت فى الأفق بارقة أمل جديدة فى الإجابة عن التساؤلات الحائرة ، فلقد دعتهما السيدة العجوز والدة زوجة الجار الشهم للسفر معها إلى العاصمة، عسى أن تلتقى كل منهما فيها بالشاب الذى أسر قلبها . وسافرن إليها . . وترددت الفتاتان على مجتمعات المدينة، التى يظهر فيها الشابان ، فصدمت الابنة الوسطى صدمة مروعة حين التقت بفتاها فى إحدى الحفلات ، فأقبلت عليه بمشاعرها الجارفة فإذا به يتعامل معها بجفاء شديد، ثم ينسحب من أمامها لينضم إلى مجموعة من سيدات المجتمع، تتألق بينهن فتاة جميلة تضع ذراعها فى ذراعه .

وتتوالى الأنباء المؤلمة على الفتاتين المصدومتين، وتعرف الابنة الوسطى أن فتاها الوسيم قد خطب هذه الفتاة الثرية لأنه قد فقد عمله السابق، ولم يعد لديه ما يواجه به الحياة سوى مال زوجة ثرية . وتعرف الابنة الكبرى أن فتاها الحبيب كان مرتبطاً قبل أن يعرفها بسنوات بفتاة صغيرة وعدها بالزواج منها ، ولا يستطيع كإنسان نبيل إلا أن يحترم كلمته ويفى بوعده لها، حتى لو كانت مشاعره قد تحولت عنها الآن . وبسبب إصراره على الوفاء بوعده لتلك الفتاة، غضبت عليه أمه المتعجرفة، وأوصت بكل ثروتها لشقيقه الأكبر.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد؛ فلقد ظهر فى العاصمة أيضاً ذلك الجار الشهم الذى يحب الابنة الوسطى فى صمت وتألم للفتاتين معا ،

وعلم بما جرى لفارس الأخت الكبرى ، فإذا به يطلب منها أن تعرض عليه باسمه أن يدير ضيعةً له بالقرب من منزل أسرتها ؛ ليستطيع مواجهة الحياة والزواج ممّن وعدها بذلك ، وتقبل الابنة الكبرى أن تؤدى هذه المهمة الصعبة على نفسها وفاءً للحب المحروم، فتدعو فتاها للقائها وتبلغه بعرض هذا الرجل الكريم ، ويندهش الفتى للعرض السخى، ويتساءل متحيراً :

ـ ولماذا اختارك أنت بالذات لكى تفاتحيننى به ؟ فتجيبه وهى تضبط انفعالاتها المكبوتة : لأنه ظن أنك قد لا تقبله إلا إذا جاءك من «صديق» لك .

وترجع الفتاتان من العاصمة كسيرتى النفس والقلب ، وتمرض الفتاة الصغرى مرضاً شديداً ، تشرف فيه على حافة الموت قهراً وحزناً ، وتسهر على تمريضها أختها ، ويجزع الجار الشهم لما يجرى للفتاة البريئة، ويبذل كل جهده لإنقاذها وعلاجها ، ويرهقه السهر الطويل فترجوه الأخت الكبرى أن يستريح فيجبها زافراً : قولى لى شيئاً أفعله من أجلها . . وإلا أصابنى مسُّ الجنون !

ثم تنجو الفتاة أخيراً من هاوية الخطر ، وتبدأ فترة النقاهة الطويلة ، وفى بيت الأسرة تصل الأنباء بأن فارس الابنة الكبرى قد شوهد فى الجوار مع فتاته التى تزوجها حديثاً ، فتتجرع الفتاة الألم كعادتها فى صمت، بغير أن تذرف دمعة واحدة تفضح بها أحاسيسها .

ويكشف الجار الشهم للفتاة الكبرى السرّ الذى تعذب به طوال الفترة الماضية ورفض أن يبوح به ؛ خشية أن يسىء أحد الظن فى دوافعه لذلك ، ففارسها الذى ملك عليها جماع قلبها هو نفسه الوغد الذى غرّر بالابنة المتنباة التى يرعاها ، وفرَّ منها بعد أن ترك فى أحشائها جنين الغدر والخسة .

وتتعجب الابنة الوسطى لنبل هذا الجار الشهم وقدرته على ضبط نفسه ومشاعره، وتتأمله فى صمت، وهو يقرأ لها فى كتاب الأشعار المفضل لديها ، وتعجب لنفسها كيف تعامت عن طوفان الحب الصادق الذى يحمله لها ؟ وتطول فترات اللقاء بينهما فى فترة نقاهتها ، وينسج التفاهم الهادىء خيوطه بينهما ببطء وأناة ، بعد أن اكتسبت لأول مرة فى حياتها بعض سمات شخصية أختها، وتخلت عن بعض اندفاع مشاعرها. ثم يظهر على استحياء الفتى الآخر فارس الابنة الكبرى، الذى يقيم الآن فى الجوار، ويدير ضيعة ذلك الرجل الكريم ، ويتقدم فى خجل شديد من الأم والفتيات محيياً ، وتبادره الابنة الكبرى، التى يبدو كما لو كانت قد تخصصت فى كبت المشاعر وتعذيب النفس ، بتهنئته على زواجه من فتاته ورجائها له بالسعادة معها ، ويندهش الشاب للتهنئة، ويتساءل حائراً عما تعنى بها وهو لم يتزوج بعد ، وحين تبلغه الأسرة بأنه قد شوهد فى الجوار مع زوجته الشابة ، يفاجئها بأن من تزوج فتاته التى فقد كل شىء لإصراره على احترام وعده لها هو شقيقه الأكبر وليس هو ، فلقد تحولت مشاعرها إليه بدلاً منه بمجرد أن فقد

ثروته، ولم يعد مطمعاً لفتاة مثلها ، وتذهل الابنة الكبرى لما سمعت وتسأله بلهفة غريبة عليها : ألم تتزوجها ؟ ألست أنت الذى تزوجها . . ألست ؟ ألست ؟ آه . . آه . . ثم تنفجر باكية صارخة مولولة وتنهمر دموعها الغزيرة كالمطر ! لقد سقط أخيراً حاجز الأمواج الذى تقيمه دائماً أمام مشاعرها وأحاسيسها ليمنعها من الخروج إلى العلن! . وآن لها الآن أن تفرغ كل المشاعر المكتومة فى صدرها وألا تخجل من ضعفها، ولا حتى من «فرحتها الباكية» بتجدد الأمل فيمن أحبّت .

وترقب الابنة الصغرى شقيقتها بارتياح شديد، وهى تعبر للمرة الأولى بعفوية وتلقائية عن مشاعرها الحبيسة ، وتشعر «بالسعادة» لها ، ليس فقط لعودة الحب المفقود، وإنما أيضاً لأنها قد أطلقت العنان لمشاعرها وأحاسيسها ! وتنسحب الأم والفتاتان ليخلو المكان للحبيبين، اللذين فقدا الطريق إلى الحب لفترة ثمينة من العمر .

ويتزوج الفارس النبيل فتاته الرزينة الهادئة، ويسعد القلبان أخيراً بانتصار الحب ، وتستقر مشاعر الابنة الوسطى أخيراً فى مرفأ ذلك الرجل الشهم، الذى تعذب بحبها الصامت فترات طويلة .

وتنتهى هذه الرواية الرومانسية العذبة «العقل والعاطفة» « أو المعانى والأحاسيس» كما يترجمها البعض ترجمة حرفية، والتى تقول لنا مؤلفتها الروائية الإنجليزية الشهيرة جين أوستن (١٧٧٥ ـ ١٨١٧) بعد أن أمتعتنا بأحداث روايتها الجميلة ، أننا جميعاً كهاتين الأختين ، منّا من يترك زمام أمره كله لمشاعره وأحاسيسه، وقد تؤدى به غالباً إلى التعاسة،

ومنا من لا يسمح لغير العقل وحده بأن يقود مجرى حياته، فلا يبعد أن يقوده العقل الصرف وحده أيضاً إلى التعاسة وضياع فرص السعادة ، وأن الأفضل للإنسان دائماً هو أن يصنع من الاثنين معاً « العقل . . والأحاسيس» مزيجاً معتدلاً يسلِّم إليه جماع أمره، فلا يحرمه ذلك متعة العاطفة الصادقة ، ولا يحرمه أيضاً حكمة العقل الذى يقيه من عثرات الحياة .

فبأى وصفة سحرية يستطيع الإنسان أن يضبط مقادير هذا المزيج الصعب بدقة ليضمن لنفسه متعة القلب . . وراحة العقل ؟

وأى المادتين تشعر أنت أن له «المقدار الأكبر» من هذا المزيج الصعب الذى يقود حياتك ؟

مذكرات الزوجة

تراتيل الحب والعذاب

يا إلهى . . ماذا عساى أن أجيب به عن تساؤلاته المريرة ؟

وبماذا ينبغى لى أن أرد عليه ، والأمر واضح وضوح الشمس ، ولايحتمل الحيرة ولا التساؤل ؟

ثم من هو كاتب هذه الرسالة ، الذى يقول إنه يعرفنى شخصياً ، وكثيراً ما التقى بى منذ أكثر من عشرين سنة ؟ وكيف تجمع الظروف بيننا، بعد كل هذه السنوات ؛ فيجد نفسه مضطراً لأن يتخفى بشخصيته عنى ؟

لقد كتب إلىّ رسالته بخط مرتجف ، يبدو على صاحبه الاضطراب وعدم التركيز ، حتى تعذر علىّ - فى بعض الأحيان - فهم بعض طلاسم رسالته ، ولكن السياق العام للقصة تكفل بشرح ما صعبت على قراءته، فماذا كتب إلىّ فى رسالته ؟ . . وماذا أثار تأملاتى فيها ؟

لقد كتب يقول : « الأخ فلان ! لا تتعجب من مناداتى لك بهذا اللقب ؛ لأنك أخ بالفعل ، وعزيز على نفسى ، وقد التقينا مراراً فى فترة

سعيدة من فترات العمر ، وتحدثنا طويلاً ، ولعبنا معاً الطاولة والدومينو، وكان من أصدقائك الذين يشاركوننا اللعب وقتها ، فلان . . وفلان . . وفلان ! ولكننا لم نلتق منذ سنوات طويلة بسبب زواجى ومشاغل الحياة ، وبسبب انشغالك أنت أيضاً بعملك وانقطاعك عن المنتدى ، الذى كان يجمعنا كل مساء لساعات طويلة ، وقد تزوجتُ منذ ٢٥ عاماً، وأعمل الآن بوظيفة محترمة ، وزوجتى تعمل أيضاً بوظيفة مرموقة ، ونتعاون سويًا فى نفقات المعيشة ، وإن كنت لا أعلم شيئاً عن حقيقة دخلها ، ولا ما تحصل عليه من مكافآت وحوافز ، وقد أنجبنا أبناءً، كبر بعضهم وقاربوا سن الشباب . . ومازال بعضهم فى سن الطفولة ، وقد أحببت زوجتى هذه دائماً منذ تزوجتها وأخلصت لها ، ولم أخنها ابداً، رغم ما تعرضت له من معاكسات وإغراءات كثيرة من سيدات مجتمع ، ومن زميلات العمل ، ورغم أنى كنت قبل زواجى ، فارس زمانه فى المغامرات النسائية ،. كما ربما تتذكر لو عرفت شخصيتى . .

كما أغدقت دائماً على زوجتى بكل ما فى يدى من مال ، فإذا سافرت إلى الخارج ، رجعت إليها محملاً بكل غالٍ ونفيس من الهدايا ، لها وللأولاد ونسيت نفسى ، حتى إن كثيرات من صديقاتها كن يحسدها على ما هى فيه من خير وما تلقاه من حسن معاملة من جانبى .

وقد رضيتُ عن حياتى وزوجتى واطمأن جانبى بها خاصة ، وأننى أراها تؤدى كل الفروض فى أوقاتها ، ثم حدث فى بداية هذا الصيف أن

سافرت زوجتى وأولادى إلى المصيف مع أهلها ، واضطررت أنا للبقاء فى البيت وحيداً ؛ بسبب ظروف عملى معتزماً اللحاق بالأسرة بعد أسبوعين، وخلال فترة وجودى بالبيت وحدى ، فكرت فى تنفيذ ما أردت تنفيذه منذ فترة ، وهو تغيير رقم التليفون ؛ لأنه يحدث كثيراً أن يرن التليفون وأرفع السماعة ، فلا أجد سوى الصمت ، وبحثت عن عقد التليفون القديم ، وقلّبت فى أوراقى وأوراق زوجتى بحثاً عنه ، فعثرت بالمصادفة على أجندة صغيرة تصفحتها ؛ فإذا بها مذكرات شخصية كتبتها زوجتى على فترات متباعدة ، واستثار ذلك اهتمامى فقرأت صفحتين منها ؛ فوجدتها تتحدث عن أشياء عادية فى حياتنا وحياة الأولاد وعملها ، فاكتفيت بما قرأته منها ، وأهملتها ، وعدت للبحث عن عقد التليفون إلى أن عثرت عليه .

لكن وساوس الشيطان لم تدعنى لنفسى، وتساءلت منذ متى تكتب زوجتى مذكراتها هذه . . ولماذا لم تشر إلى ذلك أبداً فى حديثها معى ؟ . . وماذا عساها أن تكون قد كتبت عنى فيها ؟ صحيح أنها أوراقها الخاصة ، ولا يجوز لى أن أطلع عليها ، مادامت قد أخفتها عنى . . ولكن ماذا يمنعنى من أن أقرأها كلها ؛ لأطمئن إلى تقديرها لشخصى ولعشرتى لها ؛ خاصة وأنها لن تكذب على نفسها فيما تدونه من أوراق ، لن يطلع عليها سواها ؟

ولم أستطع مقاومة الإغراء أكثر من ذلك ؛ فأخرجت الأجندة مرة ثانية من مخبئها ، وجلست فى فراشى لاقرأها . . وليتنى ما فعلت يا سيدى !

فلقد قرأت فيها اعترافات صريحة ومريرة بأنها تخوننى مع ثلاثة أشخاص منذ ١٥ عاماً كاملة ، وقرأتُ فيها ما شاب له شعرى وانحنى له ظهرى من الانكسار . . والقهر . . والألم والخجل ، فقرأت فيها متى كانت «مبسوطة» مع ذاك ومتى كانت «قرفانة» منى ! وكم مرة قبّلها هذا ، وكم مرة قبلها ذاك ! ومع وصف دقيق ومخجل لكل التفاصيل . أما الأشخاص الثلاثة، الذين مرَّغت زوجتى كرامتى معهم فى التراب ، فلقد دخلوا بيتى جميعاً ، وطعموا من خيرى وفرضت زوجتى صداقتهم علىّ فرضاً ، وأحدهم زوج صديقتها الحميمة ، والآخر زميلها فى العمل، والثالث متزوج ، وله أبناء ويعرض عليها الزواج فى حالة طلاقها منى ، مع ثقتى التامة فى كذبه ، وعدم إخلاص نيته .

وقرأت هذه الأوراق السوداء ، ولم أنم ليلتها لحظة واحدة . . ولا فى الأيام التالية لذلك ، وقضيت عدة أسابيع لا أنام لأكثر من ساعة ونصف الساعة ، وقد لا أنام لحظة واحدة ، لمدة يومين متتاليين .

وتعذبت عذاباً لا يدرك عمقه سوى من ذاق مرارة هذه التجربة القاسية ، وحِرتُ ماذا أفعل معها . . هل أقتلها ، لكن ما ذنب سمعتى وسمعة أولادى فيما سوف ينالنا من هذه الفضيحة ؟

هل أتقدم بهذه المذكرات للشرطة والمحاكم ؛ فتدخل زوجتى السجن لمدة ٥ سنوات؟ ولكنها الفضيحة نفسها أيضاً والثمن الفادح نفسه ، الذى سيدفعه أبنائى حين يحملون عار أمهم ؟

وأخيراً قررت أن أواجهها بما عرفت . . ورفضت اللحاق بها فى المصيف ، كما كنت معتزماً من قبل ، وانتظرت عودتها ، وانفردت بها فى أول ليلة بعد نوم الأولاد ، وواجهتها بكل شىء ، فانهارت انهياراً كاملاً واعترفت بكل ما جاء فى مذكراتها . . وروت لى ما أعرفه وما لا أعرفه من حكاياتها ، وبكت بالدموع الغزيرة . . ـ دموع التماسيح بالطبع ـ وطلبت منى الصفح . . وقالت لى إن الله يغفر ويصفح . . أفلا يصفح العبد ، ويغفر هو أيضاً ؟

لكن هيهات أن أستطيع ذلك يا سيدى ، بعد أن خدعتنى كل هذه السنوات ، وبعد أن خدعتنى بصلاتها وصيامها ، ولا أعرف ماذا أفعل معها ، فأنا الآن تَعْبان . . تعبان . . تعبان ، وأسألك بحكم الصلة السابقة بيننا أن تشير علىَّ بما أفعل . . وربما يأتى يوم ، أجد فيه الشجاعة وألتقى بك ، وأصارحك بكل شىء » .

وانتهت رسالة هذا الصديق المجهول .

وفى البداية فإنى أقول له إن الخيانة هى عار الخائن نفسه ، وليست عار الضحية ، التى ارتُكبت الخيانة فى حقها ، وان أى إنسان مهما علا قدره قد يتعرض لمثل هذا الموقف الأليم فى حياته ؛ فلا ينبغى له أن يفقده ذلك ثقته بنفسه ولا بجدارته ، بأن يكون موضع الحب والتقدير والإكبار من إنسانة أخرى أو من الآخرين لأنه ضحية . . وليس جانياً . . والعار الحقيقى هو عار من لا يحفظ العهد ويخون الثقة ، أما الخطأ الحقيقى ، الذى قد يقع فيه من يتعرض لهذه المحنة القاسية ، التردد

فيما يفعل إزاءها . . وفيما يواجهها به من إجراءات وتصرفات ، فضلاً عن التحسب الطويل لعواقب ما تمليه عليه هذه الظروف القاسية من خطوات ، على أعزائه من الأبناء ، وعلى حياته الشخصية ، وسمعته وأوضاعه العائلية .

فالحق أن مثل هذا الموقف المؤلم لا ينبغى للإنسان أن يتردد أمامه طويلاً فى اتخاذ ما يراه من خطوات ضرورية لمواجهته به ، ومهما كان الثمن الذى يدفعه ، لأنه موقف لا يحتمل تردد «هاملت» إزاء ما كان ينبغى عليه أن يفعله ليثأر لشرف أبيه ودمه . ولأن التردد الطويل والتحسب الزائد للعواقب ، يفتحان الباب غالباً للتراجع وقبول الحلول الوسط . . وقد ينتهى الأمر بالإنسان إلى إيثار السلامة والقبول بالأمر الواقع ، خادعاً النفس بأن «الأحوال» سوف تتغير للأفضل بعد ذلك وأن أخطاء الماضى لن تتكرر ، وأن الطرف الآخر قد ندم ندمًا صادقًا على ما فعل . وكل ذلك خداع للنفس ، أكثر منه قبولاً بمواجهة الموقف بما يتطلبه من شجاعة نفسية وأدبية .

إن المقارنة بين استمرار الوضع العائلى الحالى مع « وعد » من الطرف الخائن بالامتناع عن أخطاء الماضى ، والقبول باضطراب الحياة الشخصية للإنسان بعد الانفصال ، وتحمل تعاسة الأبناء بما تشهده حياتهم من قلاقل جديدة ، قد يميل بالإنسان فى النهاية إلى القبول باستمرار الحياة ، مع هذا الطرف الخائن ، ليس أملاً فى جدية «الوعد» بعدم تكرار الأخطاء ، وإنما عجزاً عن تحمل مخاطر التغيير . . وتحمل

الأعباء النفسية لتساؤلات الآخرين عن سبب الانفصال ، ومقاساة نظراتهم إذا هدتهم عقولهم إلى تخمين الأسباب الحقيقية له ؛ فيكون هذا العجز عن اتخاذ القرار المناسب ـ مهما كانت عواقبه ـ أكبر دافع لزوجة عابثة كهذه الزوجة إلى الاستمرار فى طريق العبث بشرفها وشرف زوجها ، طالما أنها أمنت رد الفعل الرادع من زوجها .

والتسامح فى مثل هذه الحالة الصارخة من العبث والاستهتار ، التى تخون فيها زوجة زوجها مع ثلاثة أشخاص دفعة واحدة ، ولمدة ١٥ عاماً، ليس من الفضائل ، ولا هو من صالح الأسرة أو الأبناء ، كما قد يحاول المرء أن يبرر لنفسه ـ أحياناً ـ عجزه عن اتخاذ القرار الحاسم معها ؛ لأن لأفعال الإنسان دائماً ثمناً ينبغى له أن يقبل به ، ويؤديه صاغراً ، وعقاب الزوجة العابثة الماجنة ، التى تسلم نفسها لثلاثة أشخاص ، لا يكون بالأخذ معها بمبدأ الصفح والمغفرة ؛ بحجة أن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء ، كما يردد دائماً أهل الخطيئة المتكررة ، وكأنما لا يعرفون ربهم إلا حين يتعللون بواسع مغفرته ـ جل شأنه ـ للنجاة ، مما يستحقون من عقاب عادل ، وإنما بمبدأ مسئولية الإنسان عن كل أفعاله ، وبتحمله نتائج هذه الأفعال والأخطاء .

وفى مثل حالة هذا الصديق المجهول . . فإنى لا أنصحه بالتسامح مع زوجته العابثة هذه ؛ لأنها ليست زوجة ، ضعفت ذات مرة أمام رجل آخر ، فاعتصمت بزوجها وأبنائها ؛ حتى تغلبت على ضعفها وواصلت مسيرتها مع زوجها .. وإنما هى زوجة غاصت فى الوحل ،

حتى الأعماق ، وهى تعى ما تفعل ، وكررت جريمتها ، مع ثلاثة أشخاص متتالين ، أو متعاصرين مع بعضهم البعض ، مما يؤكد أن الندم الصادق الذى فتح لها باب التوبة والمغفرة ، ليس وارداً ولا مرجحاً فى حالتها ، ولن يعى التسامح معها ، إلا تشجيعها على الاستمرار فى عبثها ، بعد حين كما لن يعرف زوجها راحة القلب لحظة واحدة معها ، إذا واصل حياته معها ، وسوف يطاردها دائماً بشكوكه وظنونه ، حتى ولو كفت عن العبث ، وسوف تنقلب حياة الأسرة إلى جحيم ، وتتجه إليه هو أصابع الاتهام بالمسئولية عن هذا الجحيم ، وليس إلى الزوجة الغادرة. كما قد يصبح هذا الجحيم نفسه هو مبررها النفسى « المقبول » لديها ؛ لأن تبحث لنفسها عن التعويض العاطفى « والجسدى » الملائمين لها ، خارج دائرة الزوجية .

ولهذا كله . . فإننى أنصح هذا الصديق المجهول بأن يواجه أقداره بشجاعة ، وأن ينفصل عن زوجته بهدوء ، ودون إثارة أية اتهامات ، تمس شرفه وسمعته وسمعة أبنائه، وأن يحاول تبرير لذلك لأبنائه ، بأسباب لا تمس شرف أمهم ، ولا إخلاصها ؛ لكيلا يهز رمز الأم فى مخيلتهم ، وإنما يكفى جدّاً أن يقول لكل من حوله أن الحياة الزوجية بينهما قد فسدت لأسباب عديدة ، وأنه من الأفضل للطرفين أن ينفصلا بهدوء واحترام، ويستمرا فى رعاية الأبناء ـ على البعد ـ وعلى أمل أن يجتمع شمل الأسرة فى المستقبل ، إذا زالت الأسباب ، التى دعتهم إلى الانفصال .

ولا مفر من ذلك ؛ فهى ضريبة لابد أن يتحملها الزوج المخدوع ،

وثمن عادل لابد أن تدفعه الزوجه العابثة ، لكى تدرك هول الجرائم التى ارتكبتها فى حق زوجها وأبنائها وربها ونفسها ، ولكى تسلم أيضاً بأن لكل شىء ثمناً واجب السداد ، ولتكن لها فى معاناة أبنائها وتعاستهم بهذا الانفصال ، خير دافع لإقناعها بأن العبث لا يفيد ، وأنه من الأحرى بها أن تندم ندماً صادقاً ، وليس خادعاً ، عما كان من أمرها وتبدأ صفحة جديدة من الالتزام الخلقى والدينى فى حياتها ، سواء أعادها زوجها إلى عصمته أم لم يفعل .

ولنرَ بعد ذلك ما سيكون من أمرها . . وهل سيتزوجها حقاً الشخص الآخر ، الذى وعدها بذلك ، أم سيتخلى عنها بعد أن فقدت بريقها بالنسبة إليه وتحولت إلى عبء يهدد استقرار حياته الزوجية ، ولنر أيضاً هل استوعبت الدرس ، بعد أداء الثمن العادل ، وكفرت عن جرائمها التكفير الكافى ؛ لكى يعيد زوجها النظر فى أمرها ، ويقرر ما إذا كانت تستحق فرصة أخرى معه من أجل أبنائه ، أم لا تستحق ؟

أما التساهل الآن والإسراع بالصفح والمغفرة دون أن تدفع الزوجة العابثه ثمناً عادلاً لعبثها ؛ فلن يعنى سوى أن تقضى مع زوجها الطيب هذا فترة من « الكمون » والالتزام الاضطرارى تفاديًا لإثارة شكوكه ، كما يفعل المجرمون ، حين يشعرون بملاحقة الشرطة لهم ؛ فيكفون مؤقتًا عن ممارسه نشاطهم ، ثم لن تلبث طبيعتها المستهترة أن تغلبها على أمرها ، وترجع بها بعد حين إلى مغامراتها ، فلا يكون ما استفادته من أخطاء الماضى ، سوى درس واحد فاسد ، هو : ألا تكتب مرة أخرى مذكراتها ، وألا تسجل على نفسها خطاياها وخياناتها !



لا تصعدى السلم

قالها لها السكرتير المتجهم مشفقًا ومحذرًا ، وهو يسد عليها الطريق :

ـ لا تصعدى السلم يا ابنتى . . وعودى من حيث أتيت . . إن هذا أفضل لك . . صدقينى !

لكنها لم تستجب لنصيحته . . فأفسح لها الطريق قانطاً . . وصعدت السلم والتقت به . . فكانت النتيجة أن احتاجت إلى عشر سنوات من العمر ؛ لكى تجد فى نفسها القدرة على أن تهبط درج هذا السلم نفسه ، وتخرج من حياة ذلك الفنان العبقرى ، الذى شُغفت به حبًّا .

وحين وجدت القدرة على ذلك ، كانت قد أنجبت منه طفلين ، وتحولت إلى إنسانة أخرى ، غير تلك الفتاة الجميلة الساذجة ، التى التقى بها مصادفة ، ذات مساء فى أحد المطاعم .

ومع ذلك . . فهى ليست نادمة على أنها لم ترجع من حيث جاءت ، كما طلب منها السكرتير المتَجهم أن تفعل ، وليست نادمة على السنوات العشر ، التى ضاعت من عمرها ، وهى تعيش بجواره ومن أجله ، بل

إنها على العكس من ذلك مَدينةٌ له بهذه السنوات العشر ، التى خَبِرت خلالها أحاسيس ثرية وعميقة ، وتعلَّمت فيها أسرار الحياة والحب والفن ، ومدينة له أيضاً بأنها قد تعلمت معه ، كيف تصبح فى النهاية امرأةً مستقلة ، لا تعتمد على أحد فى حياتها ، سوى على نفسها !

هذا هو باختصار ملخص قصة هذه الفتاة الفرنسية الجميلة فرانسواز، مع ذلك الفنان العبقرى المجنون بيكاسو (١٨٨١ ـ ١٩٧٣) ، وهى أيضًا قصة كل فتاة وكل إنسان يوشك أن يخطو الخطوة الأولى ، فى طريق واعد بالعذاب والمعاناة ، ومع ذلك فهو يجد نفسه مدفوعاً للمضى فيه ، رغم نصح الناصحين .

فقد التقت به مصادفة فى أحد المطاعم بباريس ، وهى مع صديقة لها ، وزميل دارس للفن ، وجاء بيكاسو مع شلة من أصدقائه ، وبينهم « دورا » آخر ضحايا الحب معه ، وحيًّا بيكاسو الفتاتين وصديقهما الذى يعرفه ، وجذبه جمال هذه الفتاة الصغيرة التى تبدو مسحورة به ؛ فقال لها على الفور إن وجهها جميل ، وإنه قد رسمه فى لوحاته من قبل أن تولد أو يراها ، وكانت هذه هى تميمته السحرية لاجتذاب اهتمام من تعجبه من الفتيات ، أما تميمته الأخرى فهى أن يدعوها لزيارته فى بيته ؛ لترى أعماله الفنية ، ولقد دعاها بالفعل ، وتوجهت إليه الفتاتان فى اليوم التالى ، فاستقبلهما الفنان الكبير بحرارة ، وطاف بهما أرجاء مرسمه ، وألمح للفتاة المسحورة به بأنه سوف يعطيها دروساً خاصة فى فن الحفر ، إذا رجعت اليه وحدها غداً ، وانصرفت الفتاتان والصديقة تحذر

صديقتها من أن تستجيب لدعوته ، وتذهب إليه فى اليوم التالى ، لأن من تقترب منه لا تفلت من شباكه . . ولا تنجو حياتها من الاضطراب .

لكن الفتاة لم تستجب لنصيحة صديقتها ، ورجعت إليه كأنما تسير منوّمة إلى أقدارها ، وفتح لها باب المسكن سكرتيره المتجهم ، وسدَّ عليها طريق السلم الصاعد للدور الأعلى ؛ حيث يقيم الفنان ، وهو يهمس لها أن ترجع من حيث جاءت ؛ إشفاقاً عليها من تكرار القصة ، التى شهد عشرات مثلها من قبل ، فتعزف عن نصيحته شاكرة وتصعد إليه ؛ فتبدأ قصتها معه !

وبعد أيام . . يطلب منها الفنان الكبير أن تنقل حاجياتها إلى بيته ؛ لتقيم معه إقامة دائمة ، ولكنها تتردد فى الموافقة ؛ لأنها تعرف أنه مرتبط بفتاة أخرى اسمها « دورا » ، ويلح عليها لمعرفة سبب رفضها ، فما أن تصارحه به حتى يأخذها من يدها إلى بيت دورا ، ويقول لها إنها ترفض الإقامة معه بسببها ، وهو يريد منها أن تقول لها إنها لا تعترض على ذلك! ، وتؤكد لها دورا إنها لا تعترض على إقامتها معه ؛ لأن قصتها هى مع بيكاسو قد استوفت كل فصولها ، ولم يعد هناك من مزيد ، فإذا كانت تلبّى دعوته للعشاء معه من حين لآخر فى أحد المطاعم ، فلأن هذا الرجل الساحر ، لا تستطيع امرأة ارتبطت به أن تكرهه ، بعد انتهاء قصتها معه .

وتقبل الفتاة أخيراً الانتقال إلى بيته ، وتحذّرها جدتها الثرية العطوف من صحبة هذا الفنان المتمرد ، وتقول لها إنه يحطم النساء اللاتى

يعرفهن ، فتطمئنها حفيدتها إلى أنها لن تسمح لأحد بأن يحطمها ، ولو كان بيكاسو نفسه !

وتنتقل معه إلى بيته الصيفى فى جنوب فرنسا ، وهناك تداهمهاللمرة الأولى والأخيرة نوبة من المخاوف ، ومراجعة النفس ، فتَتَسلل وهو نائم، حاملةً حقيبتها ؛ لترجع إلى باريس، ويصحو الفنان الكبير من نومه ، فلا يجدها بجوارها ، ويخرج للبحث عنها فيجدها على الطريق، تبحث عن سيارة تنقلها للعاصمة ، ويعيدها إلى القرية ، ويتجه بها إلى كنيستها ، ويطلب منها أن تركع أمام الهيكل ، وتردد هذا القسم :

ـ أقسم على أننى أحب بيكاسو . . وسأظل أحبه ، ولن أحب أحداً سواه إلى الأبد .

وتردد القسم بإخلاص وتعجب لهذا التصرف الغريب منه ، وهو الذى تعرف عنه إلحاده الكامل ، ويفسر لها هو هذا التناقض ، بأنها تؤمن بالكنيسة ، ولهذا فإن قسمها يُلزمها بمقتضى إيمانها ، وليس إيمانه هو .

وتستسلم الحبيبة الجديدة بعد ذلك لأقدارها بلا مقاومة ، وتعيش له ومعه ، ومن أجله ، كان فى الرابعة والستين من عمره وكانت فى الثانية والعشرين من عمرها ، ولكنها كثيراً ما شعرت بأنه أكثر شباباً وانطلاقاً وحيوية منها ، وبأنها أقرب فى نظرتها للحياة إلى نظرة الشيوخ ، منها إلى نظرة الشباب .

فهو يفعل ما يريد . . ويستمتع بما يريد الاستمتاع به دون توقف أمام أية اعتبارات ، ولا يردّ نفسه عن رغبة أو مغامرة ، ولا يتقيد بقيود المظهر، أو المكانة الاجتماعية ، أو الشهرة ، أو أى شيء .

يصحو من نومه ذات يوم مكتئباً لإحساسه المفاجيء بأن موهبته الفنية تتدهور ، وأن عمله يسوء يوماً بعد يوم ، فيرفض مغادرة الفراش وتناول الإفطار ، ويظل راقداً فى فراشه مفتوح العينين صامتاً ، وعشرات من تجار اللوحات الفنية والنقاد والمعجبين يتجمعون أمام غرفة نومه فى انتظاره، وتحاول فرانسواز ، وسكرتيره الصامت ، ومدبِّرة بيته العطوف ـ بكل الحيل ـ حثّه على مغادرة الفراش ، ليلتقى بزواره، ويستعيد حيويته . . فتستمر المحاولات من الصباح حتى الثانية بعد الظهر ، قبل أن تنجح المحاولات ، ويتناول إفطاره فى الفراش ، ويقتنع بما تقوله له فرانسواز من أن عمله يزداد عمقاً وقيمة ، ولا يتدهور كما يتصور ؛ فيسألها فى لهفة :

أتظنين ذلك ؟ فتؤكد له إيمانها به ، فيستعيد حيويته فجأة وينهض من الفراش ، ويخرج إلى حيث يتجمع الزوار ؛ فلا يخرج إليهم كما يخرج أى مُضيف عادى إلى ضيوفه ، وإنما يخرج إليهم بطريقة مسرحية ، وهو ينفخ فى البوق ، كما يفعل الجنود فى المعسكرات ؛ لتنبيه الآخرين إلى خروج القائد أو دخوله !

ثم يقبل بعد ذلك على ضيوفه وزواره بحيوية شديدة ، محييًا هذا ،

ومداعباً ذاك . . وكأنه شخص جديد ، غير الذى كانت الكآبة تقتله فى فراشه منذ ساعات !

وفى كل يوم تكتشف فرانسواز شيئاً جديداً فى حياة هذا الفنان البوهيمى الكبير ، فتعرف أن له ابنًا فى سن الشباب من زوجته الأولى والوحيدة ، التى تزوجها فى شبابه عام ١٩١٧ ، وكانت راقصة باليه روسية ارستقراطية ، أحبها فى البداية ، وتزوجها وأنجب منها ، ورسمها فى لوحات عديدة ، ثم ضاق بها وبغيرتها الجنونية عليه وإزعاجها المستمر له ، فبدأ يرسمها فى لوحاته امرأة بعين واحدة . . أو امرأة مشوهة الوجه ، كعادته حين يضيق بامرأة ، ثم انفصل عنها ، فتحولت إلى شبه مجنونة ، تطارده وتلاحقه بلعناتها وسبابها فى كل حين ، وهو لا يأبه لها .

وتعرف فرانسواز أن ابنه الشاب لا عمل له إلا اللهو ومطاردة الفتيات ، وأن أباه يقول عنه إنه لا يصلح لشىء ، ومع ذلك فالابن مغرم بأبيه ، ويفخر بأنه ابن بيكاسو العظيم ، ويتحمل ثوراته عليه ، وتأنيبه له بحب وامتثال ، ولا يطيق البعد عنه !

وتعرف الفتاة العاشقة أيضاً أن لحبيبها ابنة فى التاسعة من عمرها ، تعيش مع أمها فى بيت ، يتحمل الأب كل نفقاته ، ويزوره بيكاسو فى عطلة نهاية الأسبوع ليمضى يومًا مع ابنته وأمها العاشقة المتيمة به ، والتى تقبل بكل نزواته وتتغاضى عنها ؛ لاقتناعها العميق بأنها «الأولى»

فى حياته ، مهما كثرت حوله الفتيات ، وتكتب له كل يوم رسالة حب ، وتقنع منه باليوم الذى يقضيه معها ، ومع ابنتها كل أسبوع .

وتنجب فرانسواز من حبيبها طفلاً ، ويتعلم الطفل المشى ؛ فتصارح رجلها بأنها تريد لابنته أن تعرف أخاها ، وتطلب منه أن يدعو ابنته وأمها لزيارتهم ، ويعجب بيكاسو للعلاقة السلمية التى نشأت بين المرأتين ، ويقول لها «غاضباً» إنها ليست امرأة حقيقية ؛ إذ لو كانت كذلك لقاتلت أم الطفلة ، بدلاً من أن تصادقها !

ويروى لها أن هذه السيدة الوديعة ، التى أنجبت له طفلته قد قاتلت «دورا» ؛ حين ظهرت فى حياته بعدها ، وتصارعت معها من أجله ، فى حين راح هو يواصل رسم إحدى لوحاته فى هدوء ، نافضاً يده من عراكهما !

لكن فرانسواز لا تفعل ما يتصور أنه ينبغى لكل امرأة تعرفه أن تفعله، وفى كل يوم تتعلم شيئاً جديداً وتكتسب خبرة ثمينة بالحياة . . فتعرف أن السكرتير الغامض ، الذى حاول إبعادها عن بيكاسو فى البداية، يشكو من قلة الأجر ، الذى يعطيه له مخدومه ، ومن عدم تنفيذه لوعوده المتكررة له بأن يهبه إحدى اللوحات التى رسمها له ، لكى يحتفظ بها للتاريخ أو يبيعها ويستفيد بثمنها ، حيث مازال يعيش فى غرفة على السطح مع زوجته .

وتسأله فرانسواز مشفقة : ولماذا لا تتركه إذا كان لا يعطيك الأجر الكافى ؟

ويجيبها السكرتير فى قنوط : لكيلا اضطر إلى ضغط جرس باب مسكنه ذات يوم ، فيفتحه لى شخص آخر ، ويقول إن السيد بيكاسو مشغول ، ولا يستطيع استقبالك ، ولكى أظل مستمتعاً بالقدر الضئيل من الصداقة ، الذى يمنحه لى !

وتدرك الفتاة أنه هو الآخر من «أسرى» هذا الفنان العبقرى مثلها ، وأنه لا يطيق البعد عنه ، وإن شكا منه فى بعض الأحيان ، مثله فى ذلك مثل سائق سيارته . . وأم طفلته ومثلها هى نفسها ، وتتأكد لديها الفكرة التى كونتها عنه ، وهى أنه بشخصيته الطاغية الجذابة ، إنما يحول كل أصدقائه إلى «أسرى» أو «عبيد» له ، وتصارح بيكاسو بذلك ؛ فيصحح لها الفكرة بأنهم أسرى للصداقة أو الحب ، وليسوا أسرى شخصيين له !

وتمضى السنوات ، وهى تعيش فى كنفه ، وفى عالمه ، وقد انقطعت صلتها نهائياً بأبيها الثرى الارستقراطى ، الذى اعترض على دراستها للفن منذ البداية ، وتركها لشأنها حين أصرت على اختياره .

ومن حين لآخر ، تزور جدتها العطوف التى تعطيها بعض المال ؛ لتنفق منه على نفسها ؛ لأن بيكاسو العظيم لا يعطيها مصروفاً شخصياً ، وإن كانت قد بدأت تكسب بعض النقود من بيع لوحاتها إلى جواره .

وتكتشف فرانسواز جوانب أخرى لشخصية العبقرى المجنون ، منها : علاقته الحميمة والغريبة بالرسام الفرنسى الكبير المعاصر له ، هنرى ماتيس ، وهى علاقة غيرة وتنافس واحترام واقتناع متبادل ، من جانب كل منهما بعبقرية الآخر !

من الجوانب التى اكتشفتها فرانسواز ـ كذلك ـ أن العبقرى الإسبانى يؤمن ـ للدهشة ـ بالسحر الأسود ، ولا يأتمن أحدًا على قص أظافره وشعره سوى «أسيرته» القديمة أم طفلته ؛ فتقص له أظافره وشعره، وتحتفظ بها قصته فى «أحراز» محكمة ؛ لكيلا تقع فى يد أحد الخصوم ؛ فيستخدمها ضده فى السحر الأسود !

ومنها أيضاً أن الفنان المتمرد الذى يبدو للآخرين أنه لا يرتبط بعهد الوفاء لأحد ، وفىٌّ بالفعل لتاجر اللوحات الألمانى الأصل ، الذى يشترى لوحاته منذ ٣٥ عاماً ، ويفضله على غيره ممن يتهافتون على شراء لوحاته بالملايين من تجار الفن الجدد فى أمريكا وأوروبا ، ويفسر ذلك لفرانسواز بأن هذا التاجر كان يشترى لوحاته ، حين كان الآخرون يبصقون فى وجهه !

ومنها قدرته الجسدية الكبيرة على أن يقف أمام لوحة يرسمها لمدة تسع ساعات متواصلة ، بلا طعام ولا شراب ، ولا شىء سوى سيجارته المشتعلة باستمرار !

ومنها كذلك ولعه الغريب بأطفاله ، وهم أربعة منهم ثلاثة غير شرعيين ! ولكنه رغم ذلك مغرم بهم ، ويبدو بينهم كالطفل الكبير ، يشاركهم ألعابهم ، ويتفوق عليهم فيها .

ثم تحين النهاية ، وتتلقى فرانسواز ، وهى فى البيت الصيفى للفنان الكبير نبأ رحيل جدتها عن الحياة ، فتقرر العودة للعاصمة الفرنسية

لوداع جدتها الوداع الأخير ، وتراجع حياتها ؛ فتجد نفسها راغبة فى أن تقيم بباريس لفترة طويلة ؛ لكى تلحق أبناءها بمدارسها ، وتعيد التفكير فى حياتها كلها ومستقبلها ، وتعلن لبيكاسو ذلك فيغضب وينهار .. ويبكى ويولول .. ويتوعد بأنها لن تستطيع أن تبيع لوحة واحدة بعد انفصالها عنه ، وبأنها سترجع إليه جاثية على ركبتيها ، بعد أسبوع واحد، وتتحمل فرانسواز ثوراته وبكاءه الصاخب فى صمت وهدوء .

لقد عقدت عزمها على أن تصبح فتاة مستقلة ، وليست تابعة لأحد، ولا خاضعة لتأثير أحد عليها ، ولم يعد هناك من يستطيع أن يغير قرارها.. لقد تحررت من «الأسر» ، وآن لها أن تحيا كأمرأة مستقلة ، وليست «مُستعمرة» من أحد ولو كان بيكاسو ! وترجع إلى باريس ، وهى تعد ساحرها القديم بأن ترجع إليه فى إجازة نصف العام الدراسى؛ لكى يرى الأطفال أباهم ، وتفى بوعدها ، وترجع إليه بالفعل ؛ فتجد فتاة إسبانية صغيرة وجميلة ، قد حلت محلها فى حياة بيكاسو ، أو فى شباك العنكبوت ، التى التصقت هى بها من قبل عشر سنوات كاملة .

وتتعجب لسحر هذا الرجل ، الذى لا يفتأ أن يجذب إليه باستمرار مزيداً من الفتيات الجميلات ، وتعتذر بأدب عن رجائه لها بأن تعود إلى حياته مرة أخرى ، وتغادر بيته الصيفى بعد العطلة ، عائدةً مع أطفالها إلى باريس ، وهى أكثر ثقةً فى نفسها ، وفى قدرتها على مواجهة الحياة ، وأكثر إحساساً بالعرفان لهذا العبقرى المجنون ، الذى علمها أسرار

الحب والحياة والفن والجمال وكل شىء ، وعلمتها تجربتها معه ؛ من حيث لا يقصد كيف تصبح امرأة مستقلة بذاتها ، ولقد دفعت فرانسواز ١٠ سنوات كاملة من عمرها ، مقابل ما تعلمته ، وما شعرت به من أحاسيس جديدة عليها ، وما خاضته من تجارب ثرية ، ومشحونة بالخبرات الإنسانية والانفعالات .

ولكنها ليست نادمة على التجربة . . ولا على ما دفعته من ثمن لها ؛ فهى ليست مع الشاعر حين يقول :

ـ لو كنت أعرف خاتمتى . .

ما كنت بدأت !

وإنما كانت على استعداد لأن «تبدأ» ، رغم أنها تعرف «الخاتمة» من قبل البداية، «ورأتها» فى وجوه الجميلات السابقات ، اللاتى دخلن حياة هذا الفنان العبقرى قبلها .

أما نحن فإننا لا نملك ترف عدم الندم على تجاربنا الفاشلة ، التى استهلكت فترات ثمينة من العمر . . وانتهت«بالخاتمة» غير المرضية لنا ، وإنما نتعذب بالندم ، كما نتعذب بالتجربة غير السعيدة نفسها ، ونتمنى لو كنا قد سمعنا نصح الناصحين ، ولم نصعد السلم ، ولم نبدأ التجربة ، التى رأى كل من حولنا أنها سوف تمدنا بالعناء ولم نر نحن للأسف سوى رغبتنا فيها ، وضعفنا أمامها ، فلم نحصد بعد ذلك سوى الندم !



ظلال من الماضى

ترانيم الحب والعذاب

يعجبنى رأى الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون فى أن المستقبل ليس دائماً نتيجة آليّة للماضى ، وأؤمن بالمثال ، الذى ضربه لذلك ، حين قال إن الواعظ حين يرثى راحلاً ، ويعدد صفاته . . فإنه يستطيع أن يقول إن هذه السمة أو تلك فى شخصيته ، كانت من أثر البيئة التى نشأ فيها ، وأن هذه أو تلك قد ورثها عن أبيه أو عن أمه ، وأن هذه أو تلك قد اكتسبها بالتعليم أو بخبرة الحياة . . إلخ .

وأنا شخصياً أستعين بهذا الرأى على إقناع من يتخوفون من إنسان ، يرون فى ماضيه ما يشككهم فى صدق التزامه الأخلاقى فى الوقت الحاضر، وأقول لمن يستشيرنى فى ذلك إن الإنسان بالفعل «تاريخ »، وليس موقفاً عابراً ، وإننا ينبغى لنا لكى نحكم عليه حكماً صادقاً ، أن نلم «بتاريخه» كله مع الحياة وسلوكه فيها ، ولكن إذا أثبتت «المراجعة التاريخية» لنا أنه قد تخلص من عيوبه وأخطائه الماضية . . وثبتت أقدامه على الطريق القويم ، واختبر الزمن قوة هذا الالتزام الأخلاقى لديه ،

فثبت للاختبار وللتحدى ، فإن من واجبنا تجاهه أن نسقط هذا الماضى من حسابنا معه . . وألا نجلده بأخطائه القديمة ، وألا نتخوف من مؤثراتها المحتمة عليه ؛ لانه قد جاهد نفسه فغلبها ، وتخلص من كل ما أنكرناه عليه من قبل ، أما إذا كشفت لنا تلك «المراجعة» عن أن الحاضر مازال امتداداً للماضى بأخطائه وعثراته ونزواته ، فلا لوم علينا ، إذا تنبه هذا الماضى دائماً فى أذهاننا ، ونحن نتعامل مع صاحبه ، وإذا تشككنا فيه ، وحاكمنا «حاضره» على ضوء ماضيه . . وضعف أملنا فى انصلاح أحواله فى المدى القريب !

دارت هذه الخواطر فى ذهنى ، وهذا الرجل الوسيم المهموم يجلس أمامى ، ويروى لى قصته مع زوجته ! فلقد عرفها وهو شاب صغير ، تخرج منذ شهور فى إحدى كليات القمة وبدأ أولى خطواته الناجحة فى الحياة العملية ، فلفتت انتباهه فتاة جميلة من معارف الأسرة ، تحيط بها العيون فى كل مكان تتواجد فيه . . وتحرص على اجتذاب اهتمام الآخرين إليها . . وتشعر كلاً منهم بتمييزها له عن غيره ؛ حتى ليتوهم خطأً أنه فتى قلبها المنشود .

ووسط هذا الجو المحيط بها ، اقترب منها الشاب ، وتبادل معها الإعجاب والاهتمام ، ثم الحب ، وتمت خطبتهما فى جو مشرق بالآمال السعيدة . وخلال فترة الخطبة ، فوجىء الشاب بخطيبته ، تروى له بلا طلب منه أنها قد ارتبطت قبله بخمس علاقات قصيرة ، ظنت كلاً منها الحب ، الذى تبحث عنه ، ثم تبين لها أنها لا تعدو أن

تكون عبثاً لا طائل تحته ! ورغم اضطراب الشاب لما صارحته به خطيبته، إلا أنه ـ وبعد تفكير قصير ـ استراح إلى صراحتها معه ، واعتبرها دليلاً على صدق عواصفها تجاهه وندمها على الأخطاء السابقة، وعزمها على فتح صفحة جديدة من الالتزام والثقة .

ولم يخلُ الشاب ـ رغم ذلك ـ من بعض التخوف ، من أن يكون لهذا «الماضى» بعض ظلاله الحاضرة أو المستقبلية على شخصيتها ؛ خاصة وأن «عدد التجارب » السابقة كبير . وكان لهذا التوجس بعض أثره فى تعامله معها ؛ فنشبت بينهما خلافات صغيرة عديدة ، خلال فترة الخطبة ، أرجعها وقتها إلى صغر سن كل منهما واندفاعه .

وحدث أن تشكك ذات مرة فى اعتذارها بالتليفون عن موعد محدد له، بارتباطها بزيارة عائلية مهمة مع أمها فى الوقت نفسه، وتنبهت شكوكه فيها ؛ فتظاهر بالاقتناع بحجتها ووضع السماعة ، ثم هرول فى سيارة أجرة إلى حيث تقيم ، وربض على مقربة من بيتها ، يرقب الموقف متهيباً وراجياً أن تكذب فتاته ظنونه فيها ، فلم تمض لحظات ، حتى خرجت فتاته وحيدةً ، بغير أمها ، وهى فى قمة زينتها ، وسارت بضع خطوات فى شارع خلفى قريب ، ثم ركبت سيارة ، كانت تقف فى جانب من الطريق فى انتظارها ، ويقودها رجل يكبرها بعشرين عاماً على الأقل ، وانطلقت السيارة فى طريقها وخطيبها يقف ذاهلاً ودامعاً !

وأدرك الشاب ـ فى هذه اللحظة ـ أن ظلال الماضى مازالت تنسحب

على الحاضر ؛ ففسخ خطبته لها غير نادم ، وعلم فيما بعد أن هذا الرجل قد تقدم لخطبتها وتزوجها بالفعل ، فتمنى لها السعادة والاستقرار على البعد . . ولنفسه السلوى والعزاء مع غيرها !

ولكن الفتاة لم تخرج من حياته نهائياً ـ بعد ذلك ـ فبعد عامين فقط من فسخ خطبته لها ، عرف بأن زوجها هذا قد تشكك فى وجود علاقة لها بأحد زملائها فى العمل ؛ فتربص لها وراقبها إلى أن ضبطها معه بالفعل، وضربه وضربها علقة ساخنة ، رقدت على أثرها فى الفراش حوالى أسبوعين ، ثم طلقها بعد فضيحة عائلية صاخبة !

وترامت هذه الأنباء إليه فأسف لها ، وشعر بكثير من الامتنان لأقداره، التى «أنقذته» من الارتباط بزوجة، لا تعرف الوفاء لمن ارتبطت به ، ولا ترد نفسها عن الوقوع فى الخطأ .

غير أن أقداره كانت ترسم له مساراً آخر ، لا يتوقعه ؛ فلقد كان فى النادي ذات أصيل ، حين لمح فتاته السابقة تقترب منه متهللة ، وتحييه بحرارة شديدة ، لفتت إليهما أنظار من حوله حتى سأله بعضهم : من هذه السيدة الجميلة . . ولماذا تحييك بكل هذا الود ؟ ولم يجد الشاب الفرصة على أية حال ؛ للإجابة عن التساؤلات ، فلقد أخذه بعض الزهو بالفعل ؛ لاحتفاء هذه السيدة الجميلة به ، واستجاب لتوددها إليه على الفور ، ودعاها لتناول الشاى معه . . فطلبت هى منه أن ينتقل إلى مائدتها ؛ لتتحدث إليه على انفراد ؛ فسار معها ، وسط نظرات التساؤل والحسد !

وبجوار مائدتها ، روت له قصتها مع زوجها «الوحش» ، الذى هشم عظامها «بتأثر» شديد ، متجنبةً بالطبع أية إشارة إلى خيانتها له ، وناسبةً كل مشاكلها معه إلى « غيرته الجنونية» عليها ؛ بسبب فارق السن بينهما ، واستمع هو إليها مضطرباً ، وهى تعترف له بندمها على أن «فرطت» فيه ، وفى حبه الصادق لها . . وكيف عرفت بالتجربة أنها لم تخلق إلا له . . ولكن هكذا تفعل بنا أحياناً لعبة الأيام !

وشيئاً فشيئاً ، استيقظ الحب القديم فى قلبه تجاهها ، واستسلم لنشوة الإحساس بالظفر والرضا عن النفس ؛ لأن هذه «الجميلة» التى يغبطه عليها زملاء النادى ، تعترف بين يديه بخطئها فى حقه ، وتطلب منه الصفح ، وبدء صفحة جديدة معه من «الثقة» والإخلاص !

وتكررت اللقاءات بينهما بعد ذلك ، وبدأ عقل الشاب المتشكك يميل إلى الاقتناع بأن فتاة أحلامه القديمة قد طوت صفحة العبث والأخطاء المتكررة من حياتها ، ورغبت فى حياة الاستقرار والأمان واحترام النفس ، وساعده على ذلك مالاحظه على فتاته بالفعل من «التزام» جديد عليها فى حياتها ؛ فهى ترتدى ملابس أكثر احتشاماً عن ذى قبل ، ووجهها قد اكتسب هيئة «جادة» جديدة ، واختفت منه نظرة «الشقاوة» والغموض ، التى كانت تطل من عينيها ، وتغرى الشباب بمعاكستها ، ولأن القلب يريد . . فلقد اقتنع «العقل» ، أو تظاهر بذلك على الأقل ، واستؤنفت الخطبة السابقة بينهما ، رغم اعتراض أهله وإخواته الصاخب عليه ، وتم الزواج فى جو شبه عدائى من جانب أهله .

ومضت الحياة بينهما هادئة مطمئنة ، والزوجة الجميلة تتفنن فى إرضاء زوجها ، ولا تكف عن محاولة كسب ود أهله «واحترامهم»، ثم جاء طفلهما الوليد ، فأذاب الجليد نهائياً بينها وبين إخوة زوجها وأمه ، وبدا للجميع أن هذه الزوجة ، قد تخلت بالفعل عن عبث الماضى وطيشه ، ودرج الطفل على الأرض ، بعد قليل ، يلهو ويعبث ، ويثير البهجة والسعادة فى حياة الأسرة ، واطمأن خاطر الزوج الشاب إلى حياته وأسرته؛ فتفرغ بكل طاقة لعمله ؛ حتى حقق تقدماً ملحوظاً فيه خلال سنوات معدودة ، وعادت الزوجة إلى عملها ، بعد انتهاء إجازة رعاية الطفل ، فأصبحت تخرج من عملها إلى دار الحضانة ، التى تودع طفلها فيها ، ثم تتوجه إلى النادى؛ لتقضى فيه ساعة ، يستمتع خلالها الطفل بالشمس والهواء ، ويلحق بها الزوج ؛ فيرجعان إلى البيت، أو يتناولان طعام الغداء فى النادى .

وشيئاً فشيئاً . . أحس الزوج ببعض التحفظ والبرود من جانب زوجته تجاهه ، كما بدأ يسمع كثيراً منها «أنشودة» الصداع الذى يهاجمها كثيراً . . ويفسد مزاجها النفسى ، ويجعلها عازفة ـ فى أغلب الأحيان ـ عن التجاوب العاطفى معه ، حتى ران الصمت على علاقتهما معاً فى معظم الأحيان ، ثم أعلنته فجأة بأنها قد ملَّت العمل ، وضاقت به لأنه يحرمها من رعاية طفلها خلال انشغالها به ، وأنها ستحصل على أجازة أخرى لرعاية الطفل ؛ حتى يبلغ سن الدراسة ، وحصلت على الأجازة بالفعل ، وبدأ مزاجها النفسى يعتدل ـ إلى حد كبير ـ وإن لم تتخل بعد عن جمودها العاطفى معه .

أما الذهاب إلى النادى فلقد أصبح يوميًّا ، فإن لم تذهب إليه فى الصباح ، خلال غيابه فى عمله لانشغالها بشأن من شئون البيت ، فإنها تذهب إليه فى الأصيل مع طفلها ، وفى الوقت نفسه الذى يرجع فيه زوجها من عمله مرهقاً مكدوداً ، فلا يستطيع مصاحبتها للنادى فى معظم الأحيان .

وتمضى الحياة هادئة ، ولكن فاترة ، وفى الأفق العائلى غمام غير مريح من الغموض ؛ فالزوجة ساهمة أغلب الأوقات ، وفترات صمتها تطول ، ومرات حديثها المبهم القصير فى التليفون تتزايد ، فترى هل عادت السيدة الجميلة إلى مرحلة الأسرار والألغاز من حياتها السابقة!

وتردد السؤال فى حذر فى أعماقه . . فإذا بمارد الشك النائم ، يستيقظ مرة أخرى فى صدره ، وقبل أن يهز رأسه ، طارداً هذا الخاطر المخيف عنها ، أجابه الهاجس الراقد فى مكمنه : ولم لا تفعل ، ولها فى «المغامرة» ماض عريق ؟ وماذا يردعها عن تكرار ذلك ، ألم تعرف قبلك خمسة شبان وربما أكثر ؟ ألم تعرف زوجها السابق ، وهى مرتبطة بك برباط الخطبة ، وتستعدان للزواج ؟ وألم تخن هذا الزوج نفسه ، الذى خانتك من أجله ، مع زميل لها بالعمل ؟

ووجد الزوج نفسه فى دوامة عصيبة ، ولم يطق معايشة هواجسه أكثر من ذلك ، فقرر أن يراقب زوجته عن بعد ، ولم تسفر مراقبته لها عن شىء ، يؤكد هواجسه . . ولا عن شىء يطمئن خواطره تجاهها ، فأقدم على خطوة أخطر ، وقام بوضع تليفونه تحت المراقبة ، وفى الموعد المحدد

لانتهاء فترة المراقبة ، سلمه المسئول شرائط المراقبة، وفى عينيه نظرة غامضة .

وغادر الزوج المكان مرتبكاً ، وفى سيارته وضع أول شريط ، ثم تجمد فى مجلسه ذاهلاً ، وهو يسمع صوت زوجته منها . إنه صوت زوجته الذى يعرفه فى الفترة الأخيرة جامداً بارداً ، ولكنه فى هذا الشريط دافىء ورقيق ، بل وطروب أيضاً ، يشى بالأنوثة والدلال ، أما الحديث الذى سمعه فبين رجل وامرأة ، يجمعهما الحب والشكوى من «ظلم» الأقدار ، التى حرمت كلاً منهما من نصفه الآخر الصحيح .

ولفت انتباه الزوج المصدوم تردد كلمة «النادى» كثيراً فى الحديث ، فأيقن أنه مسرح القصة المخزية ، وتحامل على نفسه ، فلم يظهر لزوجته شيئاً مما عرفه .

وفى صباح اليوم التالى ، غادر عمله بعد ساعتين ، وركب سيارته متوجهًا إلى النادى ، وفى ركن بعيد من الحديقة جلس يترقب مجىء زوجته مخفياً وجهه بصحيفة الصباح ، وبعد لحظات جاءت مع طفلها ، فانطلق الطفل يجرى لاعباً ، وجلست الزوجة تحتسى القهوة مترقبة ، فلم يمض وقت طويل حتى جاء شاب ، تهللت أساريرها حين رأته ، وجلس الشاب متوجهاً إليها بكل اهتمامه ، وجاء الجارسون إليه بالقهوة؛ فتظاهر بالفضول ، وسأله عن هذه السيدة وزوجها ؟ فالتفت الجارسون للحظة ، ثم أجابه باستهانة إنها عضو من أعضاء النادى . .

ولكن الشاب الذى يجلس إليها ليس زوجها ، وإنما هو مدرب كرة اليد بالنادى !

واستجمع الرجل كل قدرته على التظاهر بالاستهانة؛ وعاد يسأل الآخر متظاهراً بالفضول : وماذا يجمع بينهما ؟ فأجابه الجارسون ، وهو يغمز بطرف عينه : الشقاوة . . والفراغ !، ثم ابتسم ؛ فوجد نفسه مضطراً لمجاراته فى الابتسام المؤلم ، كابحاً جماح انفعالاته وأحزانه ، ثم انتظر ابتعاد الجارسون عنه ، ووضع الصحيفة جانباً ، ونهض متجهاً إلى مائدة زوجته وصديقها فى تصميم ، والشرر يتطاير من عينيه !

أما ما حدث بعد ذلك . . فلقد رواه لى ، وهو يزورنى فى مكتبى من بين دموعه ، فقال لى إن زوجته رأته يقترب منها ، وفى عينيه نظرة أنذرتها بالخطر ، فإذا بها تعجز حتى عن التظاهر بالدهشة لرؤيته على غير انتظار ، وتستشعر الخطر المفاجىء ؛ فتهرول بغير تفكير ، وتغادر النادى ، غير آبهة لشىء حتى لطفلها ، الذى تركته وراءها . . أما الشاب فلقد تابعها بذهول للحظات ، ثم التفت إلى الرجل الذى أثار فزعها ، ففوجىء به يلكمه بقوة فى وجهه ، وقبل أن يتمالك نفسه أو ينطلق بكلمة واحدة ، كان الرجل قد انصرف عنه باحثاً عن طفله ، وخارجاً من النادى ، وسط ذهول الحاضرين !

ورجع إلى بيته ، فلم يجد زوجته ، وأدرك أنها قد توجهت إلى بيت أهلها ، فأتصل بأمها طالباً منها ألا ترجع إلى بيتها مرة أخرى ؛ لأنه سيرسل إليها ملابسها وأشياءها ؛ حيث تقيم ، فعرف منها أنها قد

ادعت لأسرتها أنه قد أحال حياتها إلى جحيم «بشكوكه» فيها ، وأنه قد لاحقها إلى النادى ، وأثار فضيحة مدوية ؛ لمجرد أن رأى مدرباً شابًّا من مدربى النادى ، يتحدث إليها ، وكانت «تتفاهم» معه على تعليم طفلها ، الذى لم يبلغ الرابعة بعد لعبة الاسكواش !!

وحين جاء إليه شقيقها المتزوج معاتباً وساعياً فى الإصلاح ، واجهه بالحقيقة وبشرائط التسجيل ، فبُهت الرجل ، وصب لعناته على شقيقته المستهترة ، وأقسم ليطردنها من بيت الأسرة ، وتوجه إليها بالفعل ساخطاً، فأوجعها ضرباً وركلاً ، ودفعها خارج باب الشقة ، لولا أن توسلت إليه أمها ، أن يدع لها الأمر لتعالجه مع ابنتها .

وبعد فترة من الانقطاع اتصلت به الزوجة الخائنة ، وطلبت منه أن يعطيها «فرصة أخرى» ؛ لأنها قد تعلمت «الدرس» ، وأدركت خطأها ، ولامت نفسها كثيراً على ما فعلت واستشعرت مسئوليتها عن زوجها وطفلها .

هذه هى القصة ، التى جاء هذا الرجل ليرويها لى . . أما سؤاله لى فقد كان هكذا :

- هل يعطيها هذه الفرصة الجديدة أم ماذا يفعل ؟

ووجدت نفسى أسأله على الفور : وكم مضى الآن على «واقعة النادى» هذه ، فأجابنى بأنه قد مضى عليها أسبوعان فقط !

ووجدت نفسى أقول له - بعد تفكير قصير - أنه بقدر الجُرم الذى

نرتكبه ، يكون التكفير عنه والتطهر منه ، وبالتالى فإن فترة الأسبوعين ، التى مضت على الجريمة ليست كافية ؛ لكى تتطهر هذه السيدة مما فعلت ، ولا كافية لاختبار صدق ندمها على الخطأ وتوبتها عنه . . بل إن التسامح معها فى مثل هذه الظروف غير المريحة ، لا عائد له غالباً إلا تهوين الجرم عليها وليس من العدل أن يخطىء الإنسان ، ثم يتهم الآخرين بالقسوة عليه ؛ لأنهم عاقبوه على ما فعل ، وإنما العدل هو أن يسلم المخطىء بأن لكل شىء ثمناً فى الحياة ، وأن يتحمل تبعات ما فعل راضياً ، ثم يكافح بعد ذلك طويلاً للاعتذار عن الخطأ ، ولطلب الصفح عنه ؛ فلا يكون له شفيع فى ذلك إلا أن يراقب الآخرون سلوكه فى الحياة بعد الندم ، ويتأكدوا من أنه قد استوعب بالفعل درس التجربة ، وتمسك بالطريق القويم تمسكاً نهائياً .

ولن يتاح لنا أن نصدر عليه حكماً عادلاً ، إلا إذا أتيحت لنا فترة كافية من الزمن ، نرقب خلالها سلوكه فى الحياة، وعلى ذلك . . فإنى لا أنصحه بالتسامح معها فى الوقت الحالى ، وإنما بأن يتمسك بالعدل معها ، فينفصل عنها ، ثم يواجه أقداره بشجاعة : فإما أن يرتبط بغيرها ويبدأ معها حياة جديدة . . وإما أن تثبت له تجربة الأيام أن زوجته «السابقة» قد صدق بالفعل ندمها ، والتزمت النهج القويم فى الحياة ؛ «فيبحث» حينئذ أمر استئناف حياته معها مرة أخرى . أما المبادرة بالصفح والتجاوز عن مثل هذه الخطيئة الكبرى ، فلا معنى له إلا استمرار الخطأ . . أو توقعه فى فترة قادمة .

وأحنى الرجل رأسه صامتاً بعض الوقت ، ثم سألنى متردداً :

- ترى هل أخطأت فى البداية باستمرار خطبتى لها ، وقد صارحتنى هى خلالها بكثرة «تجاربها» السابقة ، قبل ارتباطى بها .

ووجدتنى أجيبه فى حذر ، بأن ذلك لم يكن خطؤه الحقيقى فى القصة كلها ، وإنما كان الخطأ الحقيقى هو تعاميه عن فهم شخصية هذه السيدة ، منذ البداية ، وعن فهم مغزى إقدامها على خيانته ، وهى مخطوبة له مع رجل آخر ، ثم خيانة هذا الرجل نفسه ، بعد أن تزوجته ؛ مما قاد - فيما بعد - إلى تكرار الخيانة له ، وهى هذه المرة زوجة له وأم لطفله ؛ فكل إنسان معرض للوقوع فى الخطأ ، دون أن يكون هذا الخطأ دليلاً على أن طابع شخصيته هو الانحراف الأخلاقى ؛ إذ قد يكون خطؤه نزوة عابرة ، أو لحظة ضعف بشرى ، لا تتكرر مرة أخرى فى حياته .

أما تكرار الخطأ - مرةً بعد مرة - بالتفاصيل نفسها ، فلا يمكن إلا أن يكون دليلاً على فساد قيم الإنسان الأخلاقية وانحرافه النفسى والخلقى ، وليس من المفيد التسامح مع أخطاء مثل هذا الإنسان ؛ لأنه يهون عليه الثمن الذى يدفعه لأخطائه .

ومن البشر من يحملون بعض سمات الشخصية السيكوباتية فى أعماقهم ، والشخصية السيكوباتية شخصية منحرفة ، تستجيب لنداء المتعة واللذة والفائدة اللحظية دون تقدير للعواقب وإحساسها بالمسئولية

الأخلاقية والإنسانية عن الآخرين الذين يرتبطون بها ضعيف للغاية ؛ لسبب بسيط ، هو أنها لا تقيس الأمور ـ فى معظم الأحيان ـ بتوافقها مع المعايير الأخلاقية والمسئولية أو عدم توافقها ، وإنما بما يمكن أن تقدمه لها هذه الأمور من متعة ولذة ومصلحة وفائدة ، كما أن هذه الشخصية تتسم أيضاً بضعف الإرادة أمام إغراء نداء المتعة واللذة ، والمصلحة على حساب كل شيء آخر ؛ حتى ليبدو أنها تعانى من نزعة شبيهة بنزعة جبر التكرار ، التى يفسر بها العلماء إقدام الإنسان أحياناً على تكرار فعل أو سلوك ، يعلم هو جيداً أنه ضار به وبالآخرين ، ومناف للقيم الدينية والأخلاقية ، ولكه يجد نفسه عاجزاً عن مقاومة ندائه ، وبهذه النزعه يفسرون إدمان التدخين والمخدرات ، والكذب ، والرشوة ، والاختلاس والنميمة ، و « الخيانة » العاطفية والزوجية ، حين تتكرر ، وتصبح سلوكاً دائماً ومتصلاً ، وليس نزوة عارضة . .

ـ قلت لمحدثى : فأى الشخصيات هى زوجتك يا سيدى ، وأى «طابع عام » لشخصيتها منذ عرفتها ، تستطيع أن تحدده لها ؟ هل طابع الاستقامه والجدية والالتزام ومقاومة الإغراءات والبعد عن العبث ؟ أم هو الطابع الآخر ؟

فسكت الرجل للحظات ، أشفقت عليه خلالها ؛ مما يعانيه من حرج ، ثم قال لى مستسلماً : بل هو الطابع الآخر بكل تأكيد ، ولكنى تعاميت عن أشياء كثيرة ، استجابة لضعفى معها ، وهذا الضعف لن يستمر لحظة أخرى بعد الآن . . وشكراً لك .

ونهض الرجل مغادراً مكتبى فى عجلة ، نسى خلالها يدى الممدودة له لتحيه الوداع ؛ وحين فتح باب المكتب ، التفت إلَىَّ ، ولوح لى من بعيد . شاكراً ، ولوحت له مودعًا وآسفاً . . ومكتئباً ! .

ترانيم الحب والعذاب

شيطان فى بيتنا

كيف ظهر هذا الشيطان ومن أين جاء ؟

لقد كانت الأسرة تعيش حياتها العادية فى هدوء ، بعد أن التأمت الجراح ، وتواءمت الأسرة مع ظروفها الجديدة ؛ فلقد رحل الأب عن الحياة ، تاركاً ذكراه الطيبة فى نفوس من عرفوه ، وبصمةً لا تُمحى فى أرواح « زهراته الثلاث » ، كما كان يحلو له أن يسميهن ، وهن زوجته وابنتاه .

وبصعوبة شديدة . . تآلفت الأسرة مع أوضاع حياتها ، بعد غيابه عنها ، ورجعت الأرملة الحزينة إلى عملها الصباحى بالمستشفى ، وأجَّرت عيادة زوجها الطبيب الراحل لأحد زملائه ، ورتبت حياة الأسرة ، على أن تحيا بمعاش الأب ، وإيجار عيادته ومرتبها ، ورجعت الابنة الكبرى إلى كليتها العملية ، التى لم تكد تبدأ فيها أولى خطوتها ، حتى رحل أبوها عن الدنيا ، كأنما قد اطمأن إلى أنه قد وضعها على بداية الطريق ، وعادت الابنة الصغرى إلى مدرستها الثانوية ، تغالب

إحساسها المؤلم بالضياع ، وفقدان السند والنصير ، الذى طالما استندت إلى كاهله ، واعتمدت عليه وتمتعت بحبه ، وتدليله الزائد لها ، حتى كانت دائماً موضع تندر الأسرة ، وأحد مسرَّاتها العائلية البهيجة ، وكان الأب لا يخفى عاطفته الجارفة تجاهها ، ويعترف بذلك ؛ حين تضيِّق عليه زوجته وابنته الكبرى الخناق ، فيقول معتذراً إنه يحب زهراته الثلاث حتى الجنون . . ولكن حبه لصغراهن يفوق حد الجنون ! وتضحك الابنة الصغيرة ، وتضحك الزوجة السعيدة ، وتسعد حتى بغيرتها الخفيفة من هذه الابنة المحظوظة . . وتضحك الابنة الكبرى «العاقلة» ، التى تلهمها طبيعتها الرزينة تفهم حقيقة مشاعر أبيها ، الذى يحبها من أعماق قلبه ، وحتى ولو خصّ شقيقتها ببعض العطف الزائد ، كما يفعل غالباً الأب تجاه أصغر أبنائه ؛ حين يشعر شعوراً غامضاً ، بأنه لن يكمل المشوار معه ، وأنه سوف يجد نفسه ضائعاً فى زحام الحياة من بعده . . ولقد كان هذا بالفعل هو ما شعرت به الابنة الصغرى ، بعد الرحيل . وكذلك الابنة الكبرى . . والأرملة الحزينة .

ثم أدى الزمن دوره الخالد فى تسكين الجراح ؛ فعادت الحياة إلى طبيعتها تدريجياً فى محيط الأسرة ، وأصبحت الأرملة الطبيبة تخرج إلى عملها فى الصباح ومعها ابنتاها ؛ فتركب سيارة الأب الراحل القديمة ، وتوصل الصغرى إلى مدرستها . . والكبرى إلى كليتها ، ثم تذهب إلى المستشفى ، وترجع إلى بيتها فى الثانية بعد الظهر ؛ لترعى شئون الأسرة ؛

حتى يحين موعد عودة البنتين ، وتجتمع « الزهرات الثلاث » ، حول مائدة الغداء .

ومضت حياة الأسرة على هذا النحو ، ثلاثة أعوام ، حصلت خلالها الابنة الصغرى على الثانوية العامة ، والتحقت بكليتها . . وشارفت الكبرى على التخرج ، وبدء حياتها العملية ، ثم ظهر فجأة هذا الشاب فى حياة الأسرة فقلب موازينها !

وجاء ظهوره فى البداية طبيعياً ومألوفاً . . ، فهو صاحب « السوبر ماركت » ، الذى تتعامل معه الأسرة ، ولقد طرق بابها ذات مساء ، مضطرباً ليستشير الأم الطبيبة فى مرض ألمّ بزوجته ، وأشارت عليه الأم بأن يعرضها عليها فى الصباح بالمستشفى ، وذهب بها إليها ورعتها الأم ، خلال إقامتها به ، إلى أن تحسنت حالتها ، وغادرت المستشفى شاكرة وممتنة ، وأراد الشاب أن يرد إليها الجميل ، فعرض خدماته عليها . . وأعطاها رقم تليفون السوبر الماركت ، ورجاها ألا تتردد فى تكليفه بأى خدمه تحتاج إليها ، ولو كانت كيساً من الملح .

وجاء أول الشهر التالى ، الذى اعتادت فيه الأم أن تشترى احتياجات بيتها من السوبر الماركت ، فخطر لها أن توفر جهدها فى الذهاب إليه ، وأن تتصل بهذا الشاب الخدوم ؛ ليرسل إليها ما تريد ، وفعلت ذلك ، فرحب الشاب بحرارة بأداء هذه الخدمة البسيطة ، لها ولم يمض وقت قصير . . حتى كان يطرق بنفسه باب الشقة ، حاملاً كل احتياجات الأسرة ، وتكررت الاستعانة به فى بعض الخدمات المماثلة .

ثم تعدَّى مجال الخدمات دائرة المشتريات من المحل ، إلى شراء لوازم أخرى للأسرة من مصادر مختلفة ، وتجاوزها بعد ذلك إلى قضاء بعض مصالح الأسرة فى هيئة التأمين والمعاشات . . وفى الضرائب . . ومرفق الكهرباء . . ومرفق المياة وهيئة الاتصالات ، ووجدت لديه الأم الطبيبة رغبة صادقة فى تقديم كل ما يستطيع من عون لها ، ولكن شيئاً فى شخصيته ، وفى طريقه الأم فى حديثها إليه أثار قلق الابنة الكبرى وضيقها ، فلقد لاحظت على أمها التى كانت تغالى دائماً فى تحفظها مع الغرباء ، وتتسم بقدر كبير من الرزانة ؛ حتى ليعدَّها البعض جافة الطبع ، أنها قد بدأت تتخلى عن كثير من تحفظها فى تعاملها مع هذا الشاب ، وأنها تزداد اهتماماً بأناقتها وزينتها ، وتزداد أيضاً طلباً للخدمات المختلفة من هذا الشاب ، حتى بات ظهوره فى مسكن الأسرة شبه منتظم ولأتفه الأسباب !! .

وضاقت الابنة الشابة بذلك ، فبدأت تتعامل معه بجفاء مكتوم ، ولاحظت الأم جفاءها معه ، فسألتها « ببراءة » عما يدعوها إلى ذلك ، والشاب « طيب » وخدوم ، ويؤدى خدمات جليلة للأسرة ، التى فقدت برحيل الأب من يرعاها ، وأثار افتعال الأم لهذه اللهجة البريئة الرقيقة معها حزنها ، وضاعف من مخاوفها ، إذ لو لم يكن فى الأمر شىء غير مريح ، لما اضطرت الأم لافتعال هذه الرقة الكاذبة معها .

ولم تستطع الابنة كتمان مشاعرها أكثر من ذلك ؛ فصارحت أمها بسوء ظنها فى نية هذا الشاب تجاهها ، ورجتها التحفظ فى تعاملها

معه ؛ تجنبا لكلام الناس عنها ، وهى الأرملة ، التى مازالت جميلة ، وانقاذاً لسمعة ابنتيها اللتين قد يصيبهما رذاذ من هذا الكلام . . ففوجئت الابنة بأمها تتخلى عن قناع الرقة المفتعلة ، وتتحول إلى نمرة هائجة ، تدافع عن هذا الشاب بلا حياء ، وتتمسك بوجوده فى حياة الأسرة ، وتطلب من الابنة أن تحسن استقباله كلما جاء ؛ لأنها لن تتخلى عنه مهما حاولت !

وصدمت الابنة فى أمها صدمة هائلة . . وكشفت لها الأيام بعد ذلك، ما لم تتخيل أن تتردى إليه الأمور بين أمها وبين هذا الشاب ، فلقد فوجئت بها تدعوه للعشاء معهن فى بيتها ، ذات مساء ، غير عابئة بانزعاج الابنتين من أن يجيء رجل غريب للعشاء معهن دون زوجته ، ولا بنظرات الاستنكار القاتلة فى عين الابنة الكبرى ، وجاء الرجل فى موعده أنيقاً باسماً لزجاً متودداً ، واعتصمت الابنة الكبرى فى غرفتها ، رافضة الخروج للعشاء .

وبعد قليل لحقت بها شقيقتها الصغرى ، منزعجة تسألها عما يجرى فى بيتهن ، فلقد رأت أمها تخرج عن اتزانها المعهود مع هذا الشاب ، وتتضاحك معه « بأنوثة » غريبة عليها ، كأنها قد ارتدَّت فتاة مراهقة من جديد ؛ فلم تستطع احتمال الموقف وانسحبت من المكان ، وانفجرت الشقيقة الكبرى باكية ، وأخرجت البخار المكتوم فى صدرها طوال الفترة الماضية ، وروت لشقيقتها كل ما جرى بينها وبين أمها بشأن هذا الشاب .

وتحولت حياة الأسرة ـ منذ ذلك الحين ـ إلى جحيم ، تتلظّى فيه الفتاتان كل يوم ، فلقد تخلّت الأم عن تظاهرها السابق ببراءة العلاقة بين هذا الشاب وبينها ، « وزأرت » فى وجه ابنتيها ، حين تحدثتا إليها فى الأمر، بأنها « تحبه » ، وأنه الرجل الوحيد الذى أحبته فى حياتها ، ولا تستطيع التخلى عنه ، وعليهما أن تقبلا بهذا الأمر الواقع ، أو تفعلا ما تشاءان ! وحين ذكّرتها إحداهما بأنه زوج وأب لطفل صغير ، ويصغرها بعشر سنوات ، ردت باستهانة بأن كل ذلك لا يمنعها من الارتباط به !

وبكت الابنتان حتى جف دمعهما . . وحزنتا حتى الموت على أبيهما الطيب ، الذى أساءت إليه أمهما بحديثها المذهل عن أنها لم تكن تحبه ، رغم ما كان يبدو لهما من تفانيه فى إرضائها . .

وقام جدار عالٍ من الجفاء والتوتر بينهما وبين أمهما ، وتحوّلت الأم ـ التى كان بعض أفراد أسرة ابيهما ، يتندر عليها بأنها كالقائد العسكرى ، الذى لا يقيم وزنًا للمشاعر العاطفية ـ إلى شخصية أخرى مختلفة تماماً . . صحيح أنها لم تكن أماً حنوناً لهما ، وأن نبع الحنان فى حياتهما كان يتدفق عليهما من ناحية الأب وليس الأم ، إلا أنها كانت رغم ذلك أُمًا تعرف واجباتها تجاه ابنائها ، وكان الأب يبرر لهما تحفظها الزائد ، بأنها تريد أن تعادل به عطفه الغريزى عليهما ؛ لكيلا تفسدا ، وبأنها تؤدى دور «العقل» فى حياة الأسرة ؛ لأنه بطبيعته لا يستطيع أن يؤدى معها ، إلا دور القلب وحده ، فأين ذهب العقل من رأس هذه السيدة الجميلة . . وماذا أصابها ؟

ثم نهضت الابنة الكبرى من نومها القلق فى إحدى ليالى امتحانها على أصوات حديث ، بدا لها غريباً فى المسكن الهادىء ، فخرجت إلى الصالة فإذا بها ترى أمها راجعة من الصالون ، وتقول لها ـ بلا اضطراب ـ إن لديهن «ضيفاً» هذه الليلة سوف يبيت فى حجرة الصالون ؛ لأنه اختلف مع زوجته وهجر بيته ، وقد استضافته هذه الليلة إلى أن يدبر أمره فى الصباح ! . . يا إلهى . . رجل غريب فى بيت ، لا يضم سوى ثلاث زهرات ، لا حامى لهن ! ماذا أصاب هذه الأم ، وكيف فقدت كل سيطرة لها على نفسها إلى هذا الحد ، وماذا تفعل هذه الابنة معها . . وأين المفر ؟ هل تلجأ إلى أسرة أمها . . ومن الذى يستطيع منهم أن يؤثر على هذه الأم ، وقد خلعت كل قناع ، ولم تعد تأبه لشىء ؟

هل تلجأ إلى أسرة أبيها الراحل ؟ وماذا يحقق ذلك والعلاقة بينهما وبين الأم متوترة وسيئة ، من قبل وفاته ؟ وماذا تجنى منه سوى شماتة الأسرة فى هذه السيدة وتشهيرهم بها ؟

هل تلجأ إلى رئيسها فى العمل ، مدير المستشفى ، وماذا يحقق ذلك سوى ذيوع القصة الشائنة ، وتأثر سمعة الجميع بذلك ؟

هل تلجأ إلى «الشيطان» نفسه ، وتستعطفه أن يترك أسرتها ؛ لتعيش كما كانت فى سلام ، ويبتعد عن الأم ويخلص لزوجته ، أو يخونها مع امرأة أخرى ، لكن متى استجاب «شيطان» لغير نوازعه وخطرات نفسه وأهوائها؟

وضاقت الدنيا بالابنة الحائرة ، فجاءت إلىّ ، وهى فى قمة معاناتها ، تعرض على هذه القصة المخجلة ، وتسألنى :

إلى من تلجأ ؟ فأجبتها بغير تردد : إلجأى إلى آخر شخص ، أنصح عادة باللجوء إليه فى مثل هذه الحالة ، ولكنه الحل الوحيد أو الضرر الصغير الآن ، بالمقارنة مع ضرر استمرار الوضع على ما هو عليه . . وهو المأذون !

اذهبى يا ابنتى الآن إلى مأذون الحى ، واصطحبيه معك إلى البيت ، «وأرغمى» هذا الشيطان على أن يعقد قرانه «الآن» ، وليس غداً على أمك مع إبرائه مقدماً من أية حقوق مادية لها عليه فى الحاضر والمستقبل ؛ لكى تنتفى كل حجة له لرفض الزواج ، وهدّدى الاثنين معًا أمام المأذون، بأنك سوف تنتحرين إن لم يعقدا قرانهما الآن أمامك أو يقطعا هذه العلاقة الآثمة ، وأكدى لهما أنك قد أودعت لدىّ رسالة تحملينهما، فيها مسئولية انتحارك ، إذا أقدمت عليه ، وطلبت منى إرسالها إلى أسرة أبيك ، إذا اتصلت بى شقيقتك الصغرى ، حاملة لى خبر الانتحار، وإننى قد وعدتك بذلك ، فإما ان يقبل الشاب بزواج أمك ، ويتحمل تبعات ذلك أمام زوجته وأسرته ، وحتى ولو كان فى ذلك شقاء هذه الزوجة الضحية ، ويتم تصحيح هذا الوضع الشائن ، حتى ولو لم يكن بالشكل المرضى لك ولشقيقتك من الناحية العائلية والاجتماعية ، وحتى أيضاً ولو كان على حساب زوجته وطفله للأسف ، وإما أن يجبُن الشاب عن تصحيح الوضع وتقديم هذا القربان الصغير للسيدة ، التى يقول

إنه يتمسك بها ، فينكشف القناع من وجهه الحقيقى أمام أمك ، وقد يدفعها ذلك إلى إعادة النظر فى الأمر كله ، وقد يساعدها على العودة إلى رشدها ، وتقدير مسئولياتها العائلية والإنسانية تجاه ابنتيها وأسرتها .

وأنصتت الفتاة الحائرة لما قلته لها لحظات ، وهى فاغرة الفم من الدهشة ، ثم نهضت فجأة ، وكأنما قد دبَّت فيها روح جديدة ، وهى تؤكد لى أنها ستفعل ما أشرتُ به عليها الآن على الفور ، طالبة منى أن أترقب اتصال شقيقتها بى فى القريب العاجل ، لتبلغنى بخبر انتحارها غالباً ، ومضت الفتاة مودّعة . .

وابتعدت خطواتها ، ثم لم تتصل بى بعد ذلك أبداً ، كما لم تتصل بى شقيقتها أيضاً . . والحمد لله !



هل كرهتُ هذه السيدة ؟

لا . . لم أكرهها !

هل ضحكتُ منها ، ومن عجرفتها الفارغة ؟

ربما أكون قد ضحكت منها فى البداية ، ولكننى بعد فترة من العمر ، لم أعد أجد فيها ما يضحكنى ، ووجدت كثيراً ، مما يثير إشفاقى على هذه السيدة ، وعلى أمثالها ومثيلاتها فى الحياة ، فهى نموذج لعجز الإنسان عن إدراك واقعه ، وعجزه النفسى عن المقاومة والتحرك ؛ لكى يدفع عنه الأخطار التى تقترب منه .

وهى تذكرنى دائماً بذلك الحلم المزعج الشهير من أحلام الطفولة فى حياة كل إنسان ، وهو حلم الوحش الكاسر ، الذى يقترب من الطفل فى عالم الأحلام ، لكى يفترسه ، فإذا همَّ الطفل بالفرار ، ناجيا منه بنفسه ، اكتشف عجزه التام عن الحركة ، واكتفى بالنظرات الخائفة المفزوعة

للخطر ، الذى يقترب منه ، وبالصراخ العاجز ، هلعاً منه ، بغير أن يتحرك قيد أنملة بعيداً عنه !

وهكذا يفعل أيضاً بعض البشر فى دنيا الواقع ، وهذه السيدة واحدة من هؤلاء البشر الذين رأوا الخطر الداهم ، يقترب منهم ، وعجزوا حتى عن مد أيديهم أمامهم لدفعه عنهم .

إنها سيدة ثرية اعتادت الحياة المترفة باهظة التكاليف ، وقد عاشت حياتها مع زوجها فى بيت كبير ، عمره أكثر من مائة عام ، يزدحم بأثاث كلاسيكى ثمين وقديم ، وتحيط به حديقة جميلة وشاسعة ، ترتفع فيها الأشجار الجميلة العريقة .

غير أن زوجها أسرف فى الإنفاق خلال سنواته الأخيرة ، واستدان ديوناً هائلة ، ثم رحل عن الحياة ، فانطلقت الأرملة تحاول أن تعوض ما فاتها من متع الحياة ، خلال مرض زوجها ، وهجرت البيت العريق وبلدتها كلها ، وراء رجل أحبته ، واقامت إلى جواره فى بلد آخر ، وأسرفت فى إنفاق ما تبقى لها من أملاك الاسرة عليه وعلى متطلبات حياتها ، إلى أن هجرها إلى امرأة أخرى ، فزلزلت صدمة الغدر والخيانة كيانها ، وقررت أن ترجع من مهجرها إلى الأرض ، التى عاشت فوقها صباها وشبابها ؛ لكى تستشعر الأمان فيها .

واصطحبت معها فى رحلة العودة ابنتها الجميلة ، التى تبلغ من العمر ١٧ عاماً ، وابنتها الأخرى المتبناة ، التى يبلغ عمرها ٢٤ عاماً ،

وخادمها الخاص ، وبلغت مسقط رأسها وبيتها فى النهاية ، وبدأت تستشعر الطمأنينة والأمان ، فى ظلال أشجار حديقتها الرائعة ، وبالقرب من الأهل وأصدقاء الزمن القديم .

لكنها ما إن بدأت تستقر فى بيتها العريق ، وتغالب آلام الغدر والخيانة . . حتى اكتشفت أن كل أملاكها قد تم الحجز عليها ، خلال غيبتها الطويلة ، وأنها سوف تباع بالمزاد العلنى خلال وقت قريب ، سداداً للديون المتراكمة عليها ، ويأتى لزيارتها التاجر الثرى ، الذى كان قبل هجرها لبلدها فلاحاً بسيطاً ، وينصحها بعقليته الواقعية أن تؤجر البيت والحديقة ؛ لكى تقام فيها فيللات صغيرة للمصيفين ، فتستطيع بذلك إنقاذ بقية أملاكها من الضياع ، ولكن السيدة الارستقراطية العاجزة عن إدراك الواقع والتكيف معه ، تقول له باستنكار :

ـ فيللات ومصيفون ومستأجرون ؟ يا لها من وضاعة !

وخلال حوارها معه يطرق بابها شحاذ ؛ فتعطيه قطعة ذهبية ، ثم تلتفت إلى التاجر الزائر ، وتطلب منه قرضاً جديداً ! وتمعن السيدة فى الانفصال عن الواقع ؛ فتقرر أن تقيم حفلاً لاستقبال ضيوفها فى اليوم نفسه الذى سيجرى فيه بيع أملاكها بالمزاد .

وتنهال عليها برقيات رجلها الغادر ، يطلب منها الصفح عنه ، والعودة إليه مرة أخرى ، فترفض فى البداية أن تفتح هذه البرقيات ، ثم تبدأ بعد قليل فى قراءتها ، والتردد بين رفض الصفح عنه وبين الاحتياج الشديد إليه .

وتقول للطالب «الأبدى» ، الذى بلغ من العمر ٢٦ عاماً ، ومازال فى عامه الجامعى الثانى ، والذى تتعلق به ابنتها الشابة ، أن هذا الرجل «المتوحش» قد مرض ثانية ، وساءت حالته ، هو يرجوها أن تسامحه ، وأنها قررت أن تسافر إليه ؛ لتكون إلى جواره فى مرضه .

ويستنكر الطالب الجامعى قرارها هذا ؛ فتقول له فى انفعال :

ـ إنه مريض ووحيد وتعيس فمن الذى سيعتنى به هناك ، ومن الذى سيحميه من أخطائه ؟ . . إنه حجر فى عنقى ، يشدنى معه إلى القاع ، ولكنى أحب هذا الحجر ، ولا أستطيع العيش دونه !

ويقول لها الطالب الصديق : ولكنه نهبك ، إنه وغد ! كل الناس يعرفون ذلك ما عداك ، فلماذا تتجاهلين هذه الحقيقة !

وتنهاه الأرملة الحالمة عن أن يتحدث بسوء عن رجلها الغادر ، وكأنها تقول له فى أعماقها إنها لا تتجاهل هذه الحقيقة ، ولكنها أيضاً لا تستطيع التخلص من حبها لهذا الوغد .

وتتلاحق الأحداث سريعاً ؛ فتقرر ابنتها أن تنتظر ذلك «الطالب الأبدى» ، كما يصفه البعض ، إلى أن ينتهى من دراسته ويتزوجها ، وتتعلق آمال ابنتها المتبناة ، بأن يخطبها التاجر الثرى دون جدوى .

ثم يأتى هذا التاجر إلى حفل الاستقبال ، الذى تقيمه ربة البيت ؛ ليعلن أنه قد فاز بشراء كل أملاك الأسرة فى المزاد ، قبيل لحظات قليلة ، الذى كان محرماً عليه ـ فى طفولته ـ الاقتراب منه أو المرور أمامه !

وتستعد الأرملة الارستقراطية لإخلاء البيت والحديقة ، والعودة إلى مهجرها ؛ حيث ينتظرها رجلها الغادر ، أو حيث ينتظرها «الحجر» ، الذى يهوى بها إلى القاع ، ولكنها على الرغم من ذلك تحبه !

ويكون رجاؤها الأخير للمالك الجديد ، هو ألا يبدأ قطع أشجار الحديقة المحيطة بالبيت ؛ لكى يقيم مكانها الفيللات الجديدة ، إلا بعد أن تغادر البيت والحديقة والبلدة كلها .

ويحترم الرجل مشاعرها ؛ فيأتى بمعدات الهدم والقطع إلى الحديقة ، ولكنه يأمر العمال بألا يبدأوا عملهم ؛ حتى تغادر السيدة بيتها .

ويعد الخدم العدة لرحيل سيدة البيت ، ويحملون الحقائب والأمتعة إلى العربة الواقفة فى الحديقة .

ويقرر شقيق الأرملة البقاء فى بلدته ؛ لكى يعمل موظفاً صغيراً فى البنك ، بعد مقاومة من جانب أخته الأرملة الحالمة ، لأن يقبل هذا العمل «الوضيع» !

وتستعد الابنة الشابة لكى ترجع مع أمها «وطالبها الأبدى» إلى المهجر؛ حيث تأمل أن ينجح فتاها فى استكمال دراسته والارتباط بها ، ويرافق الأسرة خادم شاب ، يتلهف للعودة إلى المدينة التى جاءوا منها . أما الخادم العجوز ، الذى يقترب من التسعين ، فلقد مرض مرضاً شديداً ، ولا مفر من أن تتركه الأسرة وراءها فى هذه البلدة .

ويأتى التاجر الثرى لوداع الأرملة ، فتصارحه بأنها كانت تحلم بأن

تزوجه ابنتها المتبناة ، وتقول له فى صراحة : إنها تحبك ، وأنت تميل إليها، ولكن لماذا يبدو كل منكما ، وكأنه يتحاشى الآخر !

ويجيبها بأنه لا يفهم سبب ذلك فعلاً ، ويطلب منها أن تعينه على تخطى هذا الحاجز بينهما والارتباط بها .

وتنهض بحماس لأداء المهمة ، ثم تقول الأم لابنتها إنها ستعيش بالمبلغ ، الذى أرسلته جدة الابنة لمحاولة شراء البيت ، وإنقاذ الحديقة من الضياع ، وتأمل أن يصمد هذا المبلغ بعض الوقت لنفقات حياتها ، أما المستقبل فهو فى علم الغيب !

ثم تحين لحظة الرحيل ، فتتأمل الأرملة البيت والحديقة ، وتتأوه فى حسرة ، ثم تعانق أخاها ويبكيان معاً بكاءً مكتوماً ؛ خشية أن يسمعهما أحد ، وتتلفت الأرملة حولها ، وتقول : آه يا بستانى العزيز ، آه يا حياتى الماضية ، ويا شبابى وسعادتى وداعًا لكم جميعاً . . وداعًا يا كل الأشياء الجميلة ! ثم تركب العربة فى طريقها إلى المهجر البعيد ، ويظهر الخادم العجوز المريض ، الذى أمضى زهرة عمره فى خدمة هذه الأسرة ، ويحاول فتح الباب ؛ فيكتشف أن مالك البيت الجديد ، قد أغلقه من الخارج ؛ فيقول : لقد ذهبوا ونسونى ، ولكن لا يهم !

ثم يرقد خلف الباب يائساً ، ويكف تماماً عن الحركة حتى ليخيل لمن يراه أنه يتأهب هو الآخر لرحلة جديدة إلى المصير المحتوم .

ثم يُسمع فى المكان صوت كصوت أوتار الكمان ؛ حين تتقطع واحداً بعد الآخر ، ويخفت الصوت تدريجيًا إلى أن يتوقف فلا يُسمع بعد ذلك

إلا صوت المعاول ، وهى تنهال على جذوع الأشجار العتيقة !

وتنتهى أحداث مسرحية «بستان الكرز» لأمير القصة القصيرة الأديب الروسى، أنطون تشيكوف ، التى عرضت فى موسكو لأول مرة فى ١٩٠٤ ، وشاهدتها على خشبة المسرح القومى بالقاهرة فى الستينيات ، وقرأتها بضع مرات .

ويبقى السؤال الذى تثيره قراءة هذا العمل الأدبى الجميل وهو :

كم فى الحياة من أشخاص يرون خطر الخراب المادى أو المعنوى ، يقترب منهم بخطوات حثيثة ، ويعجزون على الرغم من ذلك عن المقاومة أو القيام بأى فعل ، أو تحرك للنجاة من هذا الخطر الداهم ، الذى يحيق بهم ؟

وكم فى الحياة من أشخاص يعرفون جيداً «أحجارهم» ، التى تهوى بهم إلى القاع السحيق ، وعلى الرغم من ذلك . . فهم لا يتخلصون من هذه الأثقال ؛ لأنهم بضعفهم البشرى يحبونها ، ولا يقدرون على الحياة دونها ؟

وكم فى الحياة من أشخاص ، تحكمهم أوضاعهم السابقة ، وأفكارهم الثابتة ، وأسلوب حياتهم فيعجزون عن إدراك الواقع المحيط بهم والتكيف معه ، وتفادى السقوط إلى الهاوية السحيقة ؟

أنا شخصياً أعرف عددًا لا بأس به من هذا النموذج البشرى الحائر . . فكم تعرف أنت من أشباهه؟


220

ترانيم الحب والعذاب

شئ من العطف

دخلت غرفة العمليات مرتين فى حياتى ، وفى كل منهما كنت وحدى تماماً بلا أهل ولا أصدقاء يقفون ببابها ، ويترقبون انتهاء الجراحة ليسمعوا من الجراح كلمة تطمئنهم على مصيرى ، ويحيطون بى وأنا أغادرها إلى غرفة الإفاقة ويشدون من أزرى . . فلماذا دخلتها وحيداً وغادرتها وحيداً؟ هل لأننى بلا أهل ولا أصدقاء ؟

إننى لست محروماً منهم والحمد لله ، بل لعل الله سبحانه وتعالى لم يمنَّ علىّ بنعمة جليلة من بين نعمه الكثيرة بمثل ما أنعم علىّ به من نعمة الأهل والأصدقاء العديدين .

هل لأننى « شجاع » كما « اتهمتنى » بذلك الطبيبة الأمريكية الشابة حين سألتنى قبل بدء إجراءات الجراحة الثانية عمن ينتظرنى خارج الغرفة من الأهل ، لتبلغهم برقم حجرة الإفاقة التى سأنقل إليها بعد العملية ، فأجبتها بانه لا أحد ينتظرنى خارج الغرفة ، وليس معى فى غرفتى أحد سوى الله أنيس من لا أنيس له ؟ .

لا أظـن ذلك بل إنى على يقين من أننى لست كذلك ، فلقد كنت لا أخلو من خوف قاتل وأنا أقترب من غرفة الجراحة ، أو وأنا ممدد فوق مائدة العمليات أنتظر بدء الاجراءات فى كلا المرتين .

فما هو السبب إذن ؟

لا تفسير عندى لذلك سوى أنه طبعى الذى لا حيلة لى معه ، والذى يتملكنى ويدفعنى لأن أنفرد بهمومى وآلامى الشخصية وحدى دون الآخرين ، ولو كانوا من أقرب الأهل والأصدقاء ، وسوى هذه النزعة التى تجعلنى لسبب لا أدريه لا أنتظر مشاركة من أحد فى هذه الهموم ، فإذا بادرنى أحد « بشىء » منها سعدت به وامتننت لصاحبه ، وربما «دهشت » له أيضاً فى الوهلة الأولى لأنى لم أكن أنتظره من أحد !

فأما المرة الأولى فلقد كانت فى القاهرة منذ بضع سنوات وتكتمت أمرها عن أسرتى وأهلى وأصدقائى ، وخرجت من بيتى فى الصباح متوجها للمستشفى بغير أن أبوح لأحد بسرى ، إلى أن تمت الجراحة وفاجأتنى آلام وحشية غادرة بعدها ، فأرسلت لإحضار زوجتى وأبنائى وتحملت عتابهم صامتاً ومتفهماً .

وأما المرة الثانية فلقد كنت فيها غريباً فى بلاد غريبة تفصلنى عن بلدى وأهلى آلاف الأميال ، وبدأت القصة حين كنت فى رحلة عمل بالولايات المتحدة منذ سنوات ، ووجدتنى قريباً من مركز طبى شهير بإحدى مدن ولايات الوسط الغربى ، وتذكرت إلحاح طبيبى الذى أزوره

بانتظام كل سنة للمتابعة والاطمئنان ، بأن أقوم بهذا الفحص الجراحى المطلوب ، وكيف أنه يتطلب دخول المستشفى لمدة ثلاثة أيام ، فى المستشفيات العادية . أما فى المركز المتقدم الذى لا يبعد عنى كثيراً فإن هذا الفحص الجراحى لا يتطلب بقاء المريض بالمستشفى بعده سوى سبع ساعات فقط ، على أن يمضى يومين آخرين فى الفندق القريب منه تحت الملاحظة ، ففكرت فى انتهاز الفرصة والإقدام على هذه «المغامرة » ، واتصلت من فندقى بالمدينة الامريكية بطبيب مصرى صديق لى فى القاهرة ، واستشرته فيما أفكر فيه فشجعنى على انتهاز الفرصة ، وأكد لى أننى سأكون فى أفضل مكان فى العالم يجرى هذا الفحص الجراحى بأكثر الوسائل أمانا ، فاستخرت الله سبحانه وتعالى ، واتجهت إلى هذا المركز وحجزت غرفة فى الفندق القريب منه ، وخضعت للإجراءات الطبية المبدئية ، وحدد لى الجراح موعداً لإجراء الفحص فى الثامنة من صباح اليوم التالى .

وفى ذلك الصباح نهضت من نومى فى الفندق فاغتسلت وصليت ركعتين لله ، ثم ارتديت ملابسى وحملت معى كيساً من البلاستيك ، وضعت به بعض الأشياء التى نصحنى الطبيب بإحضارها معى لاستعمالى خلال الساعات التَّالية للجراحة . وعبرت الممر الطويل الذى يربط الفندق بالمركز الطبى ، فاستقبلتنى ممرضة سمراء أدخلتنى إلى غرفة بها عدة أسرَّة فوق كل منها مريض ، يستعد لإجراء نفس هذا الفحص ، وبدأتْ فى إعدادى له وانتهت من عملها فطلبت منى التوجه للاستراحة

المجاورة وانتظار دورى فيها ، وتوجهت للاستراحة فرأيتها خاصّة برجال متوسطى العمر ، ومع كل منهم زوجته تلتصق به وتحنو عليه وتشد من أزره .

وبعد وقت ظننته طويلا جاءتنى الممرضة ومعها عملاق أسود ، وطلبا منى الصعود إلى فراش متحرك جاءا به وفعلت ما طلبا ، ودفع العملاق الأسود الفراش أمامه لمسافة طويلة فى أبهاء المركز إلى أن دخل بى غرفة الجراحة ، ووجدت عدداً من الأطباء والطبيبات الشابات والممرضات ، وابتسم الجميع لى فى رفق ، وبدأوا عملهم فى إعدادى للجراحة إلى أن يأتى الطبيب الكبير الذى سيجريها أو يشرف عليها بمعنى أصح .

وفى هذه اللحظات اقتربت منى الطبيبة الشابة وسألتنى باسمة عمن ينتظرنى من الأهل فى الخارج لتبلغهم برقم الغرفة التى سأمضى فيها الساعات التالية للجراحة ، فأجبتها ببساطة أنه لا أحد ينتظرنى فى الخارج ! ونظرت إلىّ فى شك للحظات وتصورت فيما يبدو أننى لم أفهم سؤالها بالانجليزية فكرّرته علىّ ببطء ، فأجبتها بنفس الإجابة وبنفس البطء ! فسألتنى باندهاش : ألا تنتظرك زوجتك فى الخارج ؟ فهززت رأسى بالنفى .

فرجعت تسأل : أليس معك أحد من أهلك أو أصدقائك ؟ فكررت النفى ، فقالت لى وهى تبتسم فى إشفاق : أنت رجل شجاع حقاً !

ولم أكن استشعر فى نفسى ما « اتهمتنى » به هذه الطبيبة الشابة من شجاعة ، فلقد كنت خائفاً حتى النخاع طوال اليوم السابق ، ومنذ

حسمت أمرى على إجراء هذا الفحص الجراحى ، ولم تغب عنى طوال الوقت صورة صديقى الذى ذهبت قبل أسابيع لأعزيه فى رحيل شقيقته عن الحياة يرحمها الله ، ولا صوته وهويحكى لى عن رحيلها ويقول لى إنها لقيت وجه ربها خلال إجراء هذا الفحص الجراحى نفسه لها ، بل إننى أمضيت ليلتى السابقة فى نوم مضطرب استعنت عليه بقرص منوم ، ونهضت من نومى خائفًا، ومكتئبًا تراودنى الخواطر الكئيبة عن الموت فى الغربة بعيداً عن الأهل ؛ حتى فكرت جديًا فى حزم حقائبى ومغادرة الفندق عائدًا إلى بلدى ، فما أن اغتسلت وأديت صلاتى حتى وجدت الآية الكريمة : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » تتردد فى أعماقى بقوة ، وشعرت بسكينة عجيبة تنزل علىّ فنهضت لارتداء ملابسى ، وجمعت الأشياء التى سأحتاج إليها فى حجرة الإفاقة وغادرت غرفتى صائمًا ، متمتمًا بفاتحة الكتاب ، وأنا أشعر بسلام غريب ، فوالله الذى لا إله سواه إننى سِرت فى الممر الطويل الذى يؤدى إلى المركز الطبى وطوله لا يقل عن نصف كليو متر ، وكأننى ذاهب للاطمئنان على صديق مريض سوف يجرى جراحة بسيطة بعد قليل ، وليس لأننى شخصيًا الذى سيجريها .

وتأملتُ من جاءوا لإجراء نفس الجراحة ، وهم بالعشرات وكل منهم معه زوجته ، وكأنى أتفرج على مشهد من مشاهد العطف الإنسانى التى تثير أشجانى وأهتم بملاحظتها فى العلاقات الإنسانية ، ولم أشعر بالرثاء النفسى لأننى وحيد فى هذا الموقف ، لأننى أعرف جيدًا أننى حتى لو

كنت قد تقدمت لإجراء هذا الفحص الجراحى فى القاهرة ، فلقد كنت سوف أتكتَّمه عن أسرتى وأكابده وحيدًا كشأنى فى معظم أمورى الخاصة .

وأفقت من تأملاتى التى أثارتها ملاحظة الطبيبة الشابة ، على صوت الطبيب الكبير الذى سيجرى لى الجراحة ، وهو أمريكى من أصل إيرانى ورددت تحيته مبتسماً ، وأجبت على تساؤلاته ، ثم بدأ عمله ، وأنا منتبه لما يجرى حولى لأن الجراحة تتم بالتخدير الموضعى ، وأرقب معه شاشات المونيتور التى تظهر سير الجراحة .

ومن حين لآخر يسألنى الطبيب الكبير عما إذا كنت أشعر بشىء ، فأجبته بأننى أشعر بغثيان شديد وطمأننى إلى أنه يعطينى دواء قويًا له ، ثم واصل عمله إلى أن انتهى الفحص فى سلام ، وودعنى على موعد لزيارته فى اليوم التالى ، وغادر الغرفة إلى غيرها من غرف الجراحة العديدة التى يتم بها هذا الفحص لعشرات من المرضى كل يوم .

ووجدت ممرضة فى الخمسين من عمرها تضغط بيدها بقوة على موضع الجراحة ، وترقب الساعة فى اهتمام شديد وابتسمت لها ممتَّنا وسألتها عن الوقت الذى سوف تظل خلاله على هذا الحال ، فأجابتنى بأنه ٢٥ دقيقة بالكمال ، وإلا انفجر ينبوع الدم من الوريد كالرشاش حتى يصل إلى سقف الحجرة ! وراقبتها فى صمت وهى تؤدى عملها فى صبر ودأب إلى أن انقضت الفترة المحددة بالدقيقة ، ورفعت يدها بحذر عن قطعة الشاش التى كانت تضغط عليها بقوة ، واطمأننت إلى أن الجرح لم

ينزف، فابتسمت فى اطمئنان لأول مرة وهنأتنى بالسلامة ، وشكرتها بحرارة .

وبعد قليل جاء العملاق الأسود الذى أدخلنى هذه الغرفة ، ودفع فراشي أمامه ليعيدنى إلى صالة الاستقبال التى جئت منها قبل ساعتين ، وفى الصالة تقدمت منى ممرضة بدينة بشوش وداعبتنى ضاحكة ، وقدمت لى كوبًا من عصير البرتقال ، ولم أكن قد تناولت طعامًا أو شرابًا منذ اليوم السابق ، ولكنى لم أجد فى نفسى رغبة فى تناول أى شىء، واعتذرت للمرضة شاكرًا ، ولكن هيهات أن تدعنى لنفسى ، فلقد أكدت لى انه لابد من تناول العصير ، بل وتناول طعام الافطار الساخن الذى ستقدمه لى بعده تنفيذًا لتعليمات الطبيب ، وحرصًا على أن تنتظم الدورة الدموية بعد الجراحة .

ولم تفت المفارقة على الممرضة البدينة المرحة فقالت لى إن هذه هى أهمية أن يكون المريض متزوجًا ؛ لكى تدعمه زوجته فى هذا الموقف نفسيًّا وتحثه على تناول الطعام والشراب ، وتبث إحساس الأمان فى نفسه، ورددت على ملاحظتها بالابتسام والشكر .

وبعد ساعة قضيتها فوق الفراش المتحرك فى الاستقبال ، جاء عملاق أسود آخر ودفع فراشى عبر ممرات طويلة ، إلى أن أدخلنى الغرفة التى سأقضى بها ٧ ساعات بلا حراك تحت الملاحظة .

وفى هذه الحجرة استقبلتنى ممرضة سمراء أخرى بكوب آخر من عصير البرتقال ، نبهت علىَّ بضرورة تناوله . هو وكل ما سوف تأتينى به

من مشروبات أخرى كل نصف ساعة ؛ لأن تعليمات الطبيب تقضى بشرب السوائل بكثرة بعد الفحص الجراحى .

ووجدتنى فى الفراش وحيدًا وممنوعًا من الحركة لسبع ساعات ، ومضى الوقت بطيئًا وثقيلاً ، ولم يخفف عنى التليفزيون المعلّق أمامى من ثقله شيئًا ، فإن كنت قد ندمت على شىء فى هذه التجربة كلها ، فعلى أننى لم أحضر معى كتابا أحبه ليخفف عنى هذا الوقت الثقيل ، وإن كنت قد شعرت ذات لحظة بأن عمرى الذى قضيت معظمه منكفئًا على أوراقى وكتبى وكتاباتى لم يضع هدرًا ، فلقد كانت هذه اللحظة حين دخلت على سيدتان مصريتان مهاجرتان لأمريكا ، وتعملان بهذا المركز الكبير ؛ لتزورانى على غير معرفة فى هذه الغرفة ، بعد أن علمتا بوجودى من أوراق المركز .

وقالت كل منهما إنها تقرأ لى وتحتفظ ببعض كتبى وتمنت لى السلامة ، وسألتنى عما إذا كنت أحتاج لشىء ؟ فكدت أجيبهما بدمعة امتنان ساخنة ، ولكنى قاومتها بشدة وقاومتنى فما أدرى هل غلبتها أم غلبتنى . ولقد أمضيتا معى بعض الوقت واستأذنتا فى العودة إلى عملهما ، وحظيت منهما فى اليومين التاليين بكل العطف والمساعدة والاهتمام فأين كانت « الشجاعة » فى كل ما رويت لك ؟

إنه سجن الطبع الذى لا حيلة لى فيه والذى يجعلنى استكثر على نفسى أى عطاء يقدمه لى الآخرون ، ويجعلنى شديد الامتنان لمن يقدم لى

شيئًا منه ، وشديد التقدير لهذا العطاء نفسه لسبب جوهرى ، هو أننى لم أكن انتظره من ممن قدمه لى ، ولو حجبه عنى لما شعرت بأى لوم تجاهه .

فكأننى فى ذلك أؤمن بما قاله أمير القصة القصيرة أنطون تشيكوف بعد أن تحدث عن طفولته القاسية :

« كانت طفولتى خالية من العطف ، حتى أنى ما أزال حتى اليوم أنظر إلى العطف وكأنه شىء غير مألوف لى ، أو شىء ليست لى خبرة كبيرة به » .

فإن كانت طفولتى والحمد لله قد حفِلت بالعطف والرعاية من الأبوين والأهل ، فلقد انتهت هذه المرحله بالنسبة لى فى سن السادسة عشرة ، وواجهت الحياة وحيدًا ومغتربا عن أسرتى ، ومعتمدًا على نفسى بعدها لسنوات طويله ، عشت فيها منفردًا بنفسى ومسئولاً عنها .

ولا شك أن هذه الفترة التى طالت لأكثر من ١٨ عامًا فى حياة قبل الزواج هى المسئولة عن هذا « الطبع » ، الذى جعلنى أعتاد مواجهة مواقف الحياة وحدى ، وأن أكابدها منفردًا ، وأتخفى بهمومى الشخصية عن أقرب الناس إلىَّ ، « واستغرب » فى بعض الأحيان ما يقدمه لى الآخرون من المشاركة فى مثل هذه المواقف ، حتى ولو كنت أسعد بها كثيرًا بالفعل !



ترانيم الحب والعذاب

والأحباء لا يعرفون الصمت

نشرت منذ أسابيع فى بريد الجمعة بالأهرام رسالة ساخرة كتبها أحد الأزواج الممرورين يشكو فيها من زوجته ، ويبث شكواه منها على هيئة أسئلة على طريقة الفوازير فيقول مثلاً : من التى إذا اقتربت منها نفرت منى ؟ وإذا رغبت فيها ادّعت المرض ؟ وإذا لاطفتها تجهمت فى وجهى؟ ويكرر مثل هذه الأسئلة المريرة إلى أن يرسم بها فى ختام رسالته صورة محزنة للحياة الزوجية ، التى يعيشها والتى تفتقد الدفء العاطفى والمشاركة الإنسانية والفهم المتبادل .

وما أن نشرت هذه الرسالة حتى انهالت علىّ رسائل « الفوازير » المماثلة من أزواج وزوجات آخرين ، يصب كل منهم شكواه من شريك حياته فى هيئة أسئلة متشابهة ، ترسم كلها صوراً مؤسفة للتعاسة والجفاء وافتقاد المودة والرحمة بين شركاء الحياة .

وأذكر أننى قد توقفت أمام إحدى هذه الرسائل التى يحكى فيها رجل عن زوجته ، فيقول من بين ما يرويه عنها إنها تحرّض عليه أبناءه وتتخذ جانبهم ضده فى أى اختلاف فى الرأى معهم ، ولو كان رأى الأب هو

الأحرص على مصلحة هؤلاء الأبناء مما يريدون لأنفسهم ، وعلّقت على هذه الرسالة بأننى أتلقى رسائل عديدة من أزواج وزوجات ، يصفون نمط العلاقة الزوجية التى يعيشونها ، فلا أجد لها وصفا آخر سوى إنها علاقة «عدائية» بكل ما تحمله كلمة العداء من معان ، وليست حتى علاقة حيادية أو خالية من الحب والود ، وعلى الرغم من ذلك فلا يفكر أحد الطرفين فى وضع حد لهذه العلاقة وتحمل تبعات هذا القرار ، ويفضلون على الرغم من ذلك الاستسلام لأقدارهم ومكابدة معاشرة الأعداء تحت سقف واحد بديلاً عن معاشرة الأحباء ، ويمضون فى حياتهم الزوجية هذه بقوة القصور الذاتى والعجز عن التغيير والخوف منه، ومن مواجهة الحياة والمجتمع بعد الانفصال ، وليس بأى دافع آخر حتى ولو كان دافع الحرص على سعادة الأبناء واستقرارهم وصورتهم أمام الآخرين ، ذلك أن بعض هؤلاء الضحايا قد شبّ أبناءهم عن الطوق، وفهموا حقائق الحياة ، ولم يعد يضيرهم كثيرًا انهيار العلاقة الزوجية الفاسدة بين أبويهم .

ولقد تأملت كثيرًا مثل هذه العلاقات القائمة على الكراهية المتبادلة والرغبة الخفية لدى كل طرف فى إيلام الآخر وانتقاصه وإنكار كل فضائله ، واتهامه بكل النقائص .

وتساءلت لماذا يحكم الإنسان على نفسه بمثل هذا العذاب إلى ما لا نهاية ؟ ولماذا يرضى بمعايشة الأفكار السلبية رغم ضررها النفسى المؤكد له ، وبالانشغال الدائم بالدفاع عن النفس والهجوم على الطرف

الآخر طوال الوقت ، وتعجبت كيف يمكن أن تكون هذه هى صورة الحياة الزوجية التى أرادها الله لنا سكناً ومودةً ورحمة ؟ فإن خلت من الحب لأسباب لا حيلة لأحد فيها فلا أقل من المودة ، والرحمة ، والحرص المتبادل على مشاعر الطرف الآخر ، ومصلحته وأبنائه .

والحق إننى على كثرة ما يعاتبنى البعض لمعاداتى لفكرة الطلاق وتعريض الأبناء الصغار للتمزق بين الأبوين وهدم استقرارهم ، فإنى على الناحية الأخرى أؤمن بأن الحياة العائلية إذا فسدت تماماً وتعذر إصلاحها فلا خير فيها ، ذلك أن استمرارها على هذا النحو الفاسد لا يعنى غالباً إلا تعريض طرفيها للفتنة والضعف البشرى والسقوط فى هاوية الخطيئة ، فإن نجا طرفاها من ذلك اعتصامًا بقيمهم الدينية والخلقية ، فلقد قضوا على أنفسهم بالحرمان الأزلى من الراحة فى الحياة الشخصية ، ووقعوا فى فخ ظلم أنفسهم ومن يعاشرونه .

ولهذا فمن الأفضل إذا لم يكن من اليأس من الاصلاح بُدَ ، أن يتصرف المرء فى حياته بهدى دينه الذى وإن كره الانفصال ، فإنه لم يحرّمه ولم يؤثمه ولم يغلّ يد الإنسان فيه ، وقال لنا الخالق العظيم فى محكم آياته « وإن يتفرّقا يُغنِ الله كلاً من سعته » صحيح إنه سيكون هناك دائماً لمثل هذا الحل ضحايا ولو من الناحية المعنوية ، ولكنه على الناحية الأخرى : من الذى يقبل بمعاشرة « الأعداء » وتحول الحياة الزوجية إلى ساحة للحرب الباردة وأحيانا الساخنة بين الطرفين إلى ما لا نهاية ، ومثل هذه الحياة الفاسدة لاتخرج من الإنسان إلا أسوأ ما فيه وتحفزُه على الإثم

والعدوان على الطرف الآخر ، وإهدار القيم الإنسانية والعائلية فى التعامل معه .

ولقد توالت رسائل الفوازير فى بريد الجمعة طوال عدة أسابيع فاستفزت فيما يبدو بعض من ينعمون فى حياتهم الشخصية بالسعادة الزوجية ، فكتبوا إلىّ عدة رسائل تصف علاقاتهم بشركاء حياتهم، وتلخص خبرة السعادة الزوجية فى بعض النقاط والقواسم المشتركة .

ولأننا نستطيع أيضاً أن نستفيد من دروس السعادة كما نستفيد بكل تأكيد من دروس الألم ، فإنى ألخص هذه القواسم المشتركة فى بضعة نقاط استخلصتها من رسائل السعداء على النحو التالى :

** معظم السعداء الذين كتبوا لى عن سعادتهم لم يسبق زواجهم قصص حب عنيفة ، وإنما تزوجوا فى الأغلب الأعم زواجاً تقليدياً ، ثم ولدت بذرة الحب الهادىء بينهم خلال فترة الخطبة ونمت وازدهرت بالعشرة الطيبة بعد الزواج .

** كل السعداء يتبادلون الإعجاب ببعضهم البعض ويؤمن كل منهم بأن شريكه فى الحياة إنسان مميّز ويغبط نفسه على الارتباط به ، ولا يخفى عنه هذا الإعجاب ولا يبخل عليه بالتقدير أمام الآخرين وخاصة الأهل والأقارب .

** كلهم يتبادلون ما يمكن تسميته بالعطف الإنسانى ، فيقدر كل منهم للآخر جهاده فى الحياة لإسعاد الطرف الآخر ، وإسعاد الأبناء

والقيام بواجباته العائلية ، ولا يكتم عنه هذا الإشفاق ، ويعبر عنه من حين لآخر بأن يعرض المساهمة معه فى القيام بما يقوم عنه خلاله ، بما ينبغى له أن يقوم به الطرف الـمُجهد .

** كلهم بلا استثناء يتفقون على أهمية تكتم أسرارهم العائلية حتى عن أقرب الأقربين إليهم ، فلا يبوحون بأسرارهم الشخصية للآخرين ، ويعتبرون خلافاتهم العابرة شأنا خاصاً لا يجوز لأحد التدخل أو المشاركة فيه ، ويغالى كل منهم فى الحرص على إظهار شريكه أمام الأهل والأقارب فى أفضل صورة ، حتى ولو ادعى فى سبيل ذلك ما لا ظل له من الحقيقة ، فكأنما « يفضح » محاسنه ، ويتستر على نقائصه وأخطائه .

** كلهم بلا استثناء لا يقصرون فى واجباتهم تجاه الطرف الآخر، ابتداءً من الواجبات المادية إلى المعنوية إلى اللفتات الصغيرة التى ترضى النفس ، وتذكّر صاحبها بأهميته لدى الطرف الثانى ، كالهدية الصغيرة فى المناسبات وكالاتصال بالزوج أو الزوجة للاطمئنان عليه أو عليها خلال النهار ، وكإبداء الإعجاب الحقيقى بكل ما يفعله الطرف الآخر من أجله أو من أجل الأبناء أو الأسرة .

** كلهم كما تجمع رسائلهم يحكون عن الطرف الآخر ؛ فيقولون إن البسمة لا تغيب عن وجهه ، ولهذا فإن متاعب الحياة كلها تواجه بالابتسامة الحانية وروح التفاؤل ، وليس بالتجهم الكئيب والتشاؤم الكريه والتقطيب المزعج ، الذى يقطع الخيوط الإنسانية بين الطرفين ويحول الحياة معه إلى كآبة دائمة !

** كلهم وبلا استثناء لا يقارنون حياتهم بحياة الآخرين ، ولا يعنيهم ما حققه هؤلاء الآخرون فى حياتهم من نجاح مادى أو ثراء ، أو ما اقتنوه من أشياء أو ممتلكات ، ولا يشعرون بأنهم أقل من الآخرين ، فينطوى أحدهم على المرارة الباطنية تجاه الطرف الآخر ؛ لأنه لم يحقق له ما كان يستحقه من الحياة الأفضل .

وهم فى هذه النقطة يمسكون بالفعل بأحد مفاتيح السعادة ، وهو الرضا والشعور بالغنى الداخلى الذى لا يعادله غنى خارجى ، وكأنهم فى ذلك يؤمنون بمغزى الكلمة الحكيمة ، التى قالها سقراط ذات يوم حين وقف أمام متجر ملىء بشتى أنواع السلع ، التى لا يستطيع شراءها فتأملها طويلاً ، ثم قال :

- ما أكثر الأشياء التى لا أحتاج إليها !

ولـم يقـل « التـى لا أستطيـع اقتناءها أو شراءها » لأن ما لا تريده لا تحتاج إليه ولا يساوى شروى نعير بالنسبة إليك ، ولو كان عظيم الأهمية والقيمة لدى غيرك .

وعبارة سقراط الحكيمة هذه هى التى أصبحت فيما بعد شعارًا لمدرسة الفلاسفة الإغريق الكلبيين ، الذين كانوا يؤمنون بأن السعادة لا تكمن فى الأشياء المادية ، ولا فى زخارف الحياة وعوارضها الزائلة ، بل فى التحرر من الحاجة اليها ، ولهذا فالسعادة فى متناول الجميع إذا رغبوا فيها وأقنعوا أنفسهم بالرضا عما فى أيديهم ، وقنعوا به ، ولم يتطلعوا لحظوظ الآخرين فى الحياة ولا لما فى أيديهم .

** كلهم يجدون متعة الحياة الحقيقية فى القرب من شركاء حياتهم ، فإذا تواجدوا معًا لم ينقطع حبل الحديث بينهم طوال الوقت ، ولم يعرفوا فترات الصمت الطويلة ، لأن الصمت الطويل بين الشركاء مظهر من مظاهر الجفاء وانعدام الإيناس ونقص الاهتمامات المشتركة ، ولهذا فالأحباء لا يعرفون الصمت ؛ لأنهم فى حالة حوار متصل فيما بينهم إن لم يكن بالكلام فبالأفكار والنظرات واللمسات والعيون ، وهناك دائماً ما يجدون الحديث فيه معًا ، كلما اختلوا ببعضهم البعض أو جمعهم مكان واحد . أما « الأعداء » فلا يتسامرون ولا يتبادلون الإيناس ولا يجدون ما يشغل أوقاتهم معًا بالكلام الحلو الممتع اللذيذ ، فيغرقون فى الصمت الجاف الذى يعمق الهوة بينهم .

** كلهم بلا استثناء يستمتعون بعلاقتهم الحسِّية وينالون إشباعهم فيها ، ويعتبرونها جزءا مكملا لعلاقاتهم العاطفية ، ولكنها ليست الجزء الأهم ولا الأوحد ، فما بينهم من روابط عاطفية وإنسانية وذكريات مشتركة يثرى أرواحهم أكثر بكثير من اللحظات الحسِّية العابرة .

** كلهم تجمعهم رؤية متقاربة للحياة إن لم تكن مشتركة أو متماثلة ، ويتخذون من الحياة موقفا نفسياً واحداً أو مشابها أو مقاربا ، وليست بينهم تناقضات حادة فى رؤيتهم للحياة ، فليس بين الشريكين السعيدين فى حياتهما مثلا شريك يُعلى القيم المادية فوق كل القيم ، وشريكه الآخر يُعلى القيم الإنسانية والعاطفية عليها ، وليس بينهم من يكره البشر كراهية حادة ، وشريكه فى الحياة يحبهم ويتعامل معهم من

منطلق العطف الإنسانى ، وليس بينهم من يتعامل مع الحياة من منظور شديد التشاؤم ، والآخر يتعامل معها من منظور متفائل مبتهج بالحياة واليوم والغد . . . وهكذا .

** كلهم بلا استثناء وكما استخلصت من رسائلهم يتحلّون بروح التسامح فى علاقاتهم بشركاء حياتهم ، وينسون الإساءة سريعًا ، ويغفرون الأخطاء العابرة وغير المتعمدة ؛ لأن من لا يتسامح مع من يحب لن ينعم بالصفاء معه ، ولأن الإنسان ولو أوتى حكمة لقمان فلابد له أن يقع فى بعض الأخطاء الصغيرة إرادياً أو لا إرادياً ، فإذا لم يجد قلباً غفوراً تحولت الأخطاء إلى اساءات متعمدة وتراكمت فى نفس من لا يعرف التسامح ، وظللت مشاعره بالمرارة تجاهه .

ولهذا فإنى أستطيع أن أقول إن المحبين الصادقين يتمتعون بنوع خاص من الذاكرة ، أستطيع أن أسميه « ذاكرة الحب » وهى الذاكرة التى تسقط منها الإساءات بعد فترة قصيرة من الوقت ، وتحفظ الأشياء الجميلة ، فلا تتذكر سواها .

ويكرر صاحبها بذلك كلمة الروائية الانجليزية الشهيرة أجاثا كريستى فى مقدمة مذكراتها حين قالت : لقد تذكرت ما أردت أن أتذكره فقط ، ونسيت ما أردت أن أنساه .

** كلهم جميعا يعطون للشركاء قبل أن يأخذوا منهم ولا ينتظرون مقابلاً لما أعطوه ؛ لأن الحب فى مفهومه الحقيقى عطاء بلا تحفظات

ولا حسابات ، كما أنه أيضا ليس موزانة مالية كموازنة الشركات المساهمة بين « الأصول والخصوم » وإنما هو عطاء بلا حساب يقابله غالبًا عطاء مماثل إن لم يزد عنه من جانب الشريك المحب .

** وأخيراً فإنهم جميعاً يسلكون سلوكا نفسياً متزنا تجاه شركائهم وتجاه الحياة بصفة عامة ، وهكذا فإن نقاط الالتقاء بينهم أكثر كثيراً من نقاط الاختلاف .

وهم فى تمازجهم وتقاربهم لا يفقدون خصائص شخصياتهم المميزة ؛ لأن كلا منهم يمثل دائرة تتقاطع مع دائرة شريكه على مساحة كبيرة من التمازج والتشابه والتفاهم ، ويبقى على الرغم من ذلك لكل طرف مساحة أخرى من الدائرة ، خارجة عن حدود منطقة التقاطع ، تسمح له بخصوصيــة أفكاره وشخصيته واهتماماته ، فتمضى الحياة بالطرفين بلا عثرات ولا محن ، وتسير مياه النهر الهادئة إلى مصبها فى سلام وأمان حتى نهاية العمر .

هذه هى « خبرة السعادة » كما استخلصتها من رسائل السعداء ، التى انهالت علىَّ خلال الأسابيع الماضية .

فترى كم يبلغ نصيبك منها ، وكيف يكون حسابك مع الأيام عما قدمته لك منها ؟ !



ترانيم الحب والعذاب

النظرة الأخيرة

القاهرة مساء يوم الأحد ، أجلس فى مكتبى بمجلة الشباب موزعاً بين القيام بواجباتى الصحفية ومتابعة تنفيذ موضوعات العدد الجديد مع المحررين وأعضاء السكرتارية الفنية ، وبين واجب الترحيب باثنين من الأصدقاء العائدين من باريس إلى بلدهم فى أجازة قصيرة وصديق ثالث للطرفين ، وبين « الشاغل » الآخر الخفى الذى يؤرقنى وأحاول ألا يظهر أثره علىّ فى اهتمامى بضيوفى . ومن حين لآخر أستدير ناحية التليفون وأطلب رقماً وأهمس لمن يحدثنى متسائلاً عن الأحوال ، ومحاولاً التماس أو على الأصح « استجداء » أية كلمة أو إشارة تبعث الطمأنينة فى النفس القلقة .

فى الواحدة والنصف صباحاً كنت قد أنهيت عملى ، و « فُزت » أخيراً من محدثى فى التليفون بالكلمة التى أتلهف على سماعها منه عن استقرار الحال ، فأنزاح العبء الثقيل عن صدرى ، ووجدتنى أستطيع أن أوجه بعض اهتمامى لضيوفى الذين انتظرونى صابرين بضع ساعات ، ونهضت خارجاً معهم نبحث عن مكان فى ليل القاهرة نقضى فيه بعض

الوقت ، ونتبادل الأحاديث والذكريات الجميلة عن لقاءاتنا العديدة فى القاهرة وباريس ، واستقر بنا المقام فى كافيتريا تسهر حتى الصباح ، وتناولنا العشاء واحتسينا أكواب الشاى الساخن اللذيذ ، واندمجنا فى الحديث الممتع فنسيت فى غماره رغبتى فى ألا يطول بى السهر خارج البيت تحسباً للطوارىء ، والتمستُ فى الكلمة المبهمة التى «استجديتها» من محدثى فى التليفون ما يطمننى إلى استقرار الأحوال ، فتخلصت من حذرى واستجبت لنداء الصحبة الوفية ، والذكريات الحلوة مع الأصدقاء الثلاثة ، وأغرانى بذلك أيضا اننى كنت قد صرفت سائقى عقب مغادرتى لمبنى الأهرام ، وركبت مع الأصدقاء الثلاثة بسيارة أحدهم ، فلم يعد يؤرقنى وجود إنسان يجلس صابراً فى الجوار منتظراً انتهائى من سهرتى .

وعلى غير العادة حميت نار المشاغبة بين الأصدقاء ، وتركزت سهامها على أحدهم ، فحاصرته الأسئلة و « الاتهامات » الضاحكة ، وراح هو جاهداً يدفع عن نفسه الأذى بقدر الإمكان ، فيثير بدفاعه المتهافت المزيد من نيران المشاغبة والاتهام .

ثم فجأة سمعنا « موسيقى » التليفون المحمول فى جيب أحد الأصدقاء ، ونظرنا بتلقائية إلى ساعاتنا قبل أن يجيب النداء ، فإذا بها الرابعة صباحاً ، وتساءلنا عمن يكون الطالب فى مثل هذا الوقت المتأخر، وسمعت صديقى يجيب التليفون بكلمات قصيرة ثم يقدمه إلىّ صامتاً !

تجمدت نظرتى على يده الممدودة إلىَّ بالتليفون ! وكدت أرفض الإمساك به تهيباً لما يمكن أن يحمله إلىّ من نبأ مزعج ، إذ من سوف يخمِّن أننى الآن فى صحبة هؤلاء الأصدقاء ، وبجوار « محمول » أحدهم سوى أحد القريبين منى بشدة ، وماذا يمكن أن يدعوه للاتصال بى فى الرابعة صباحاً إلا إذا كان دافعه لذلك قوياً ومزعجاً !

تغلبت على ترددى بعد لحظات وأمسكت بالتليفون فإذا بزوجتى تنعى إلى باكية أمى رحمها الله وأثابها عن جهادها فى الحياة وأحزانها الطويلة فيها خير الجزاء !

يا إلهى لقد نفذ سهم القضاء فى الفترة التى فصلت بين مغادرتى لمكتبى واستنامتى لحديث الأصدقاء فى هذا المكان البعيد عن بيتى ، وراحت زوجتى تبحث عنى فى مظانِّى المحتملة فى مثل هذا الوقت من الليل ، فاتصلت بالأستاذ أحمد بهجت حيث أمضى بعض سهراتى عنده من حين لآخر ولم تجدنى ، واتصلت ببعض الأصدقاء فلم يُفدها أحدهم بخبر عنى ، ثم عثرت على رقم المحمول الخاص بصديقى العائد من باريس ، وقدَّرت أننى قد أكون بصحبته فى هذا الوقت ، فأدارت الرقم ونقلت إلىّ الخبر الحزين ، فكيف خاب التقدير إذن وقد سمعتُ من شقيقى فى آخر اتصال لى معه من مكتبى أن الأحوال قد استقرت بعض الشىء ، وأن أمى قد استسلمت لنوم مطمئن ، ولولا ذلك لما استجبت لنداء الصحبة ، ولما أطلت جلستى وسط الأصدقاء ، ولسارعت بالعودة لبيتى تحسباً للمفاجآت .

تُباغِتنا الأحزان دوماً على غير انتظار مهما كنا قد توقعناها ، ومهما أكدت لنا الشواهد قرب حلولها ، ونظل نتمسك دائماً بالأمل الواهى فى أن تخيب الظنون ، وتتأجل الأتراح إلى موعد بعيد ، وهكذا كان حالى مع الحزن الوشيك الذى كنت أترقبه وأدعو الله إلا يعجل به ، وأن يؤجل المجىء . فماذا فعلت حين سمعت من زوجتى نعى أمى الراحلة يرحمها الله وماذا شعرت به ؟ هل شعرت بالحزن العميق الذى يزلزل الوجدان ؟ هل شعرت بما يشعر به الإنسان دائماً فى مثل هذه اللحظة القَدَرية من الألم والوحشة ولسعة الفراق ؟ لا أدرى ، كل ما أعرفه هو أنه لم يكن داخلى فى هذه اللحظة سوى الفراغ السحيق والجمود والرغبة المضطربة فى العودة للبيت والبحث عن سائقى لأبدأ رحلة السفر إلى مدينتى الصغيرة بالأقاليم حيث يقع منزل الأسرة لأتهيأ لمشوار الوداع الأخير .

كنت قبل أيام قد طلبت من سائقى رقم تليفون قريب منه ؛ لاستدعيه فى أية لحظة إذا حمَّ القضاء فأعطانى رقم تليفون جار له يقيم فى البيت المقابل لبيته ، وطلب منى أن أتصل به إذا احتجت إليه ، مهما كان الوقت متأخراً ، فتحرّجت فى تلك اللحظة من الاتصال بالجار فى مثل هذا الوقت من الصباح المبكر ، وترددتُ ، لكن أحد الأصدقاء تناول منى الرقم وأداره وسمعته يرجو محدثه ـ بعد الاعتذار له عن إزعاجه فى هذا الوقت ـ إبلاغ جاره بضرورة الاتصال بى فى البيت ، لأمر طارىء ، فإذا بالرجل الذى استيقظ من نومه فى الرابعة صباحاً لا يعنِّف محدثه على إزعاجه فى مثل هذا الوقت المبكر ، ولا يتذمّر من ذلك ، وإنما

يستشعر بفطرة الإنسان البسيط دوافع الاتصال فى هذا الوقت، وينهض فيضع الشبشب فى قدميه ويغادر مسكنه ثم يغادر بيته ويعبر الشارع إلى بيت جاره ويطرق عليه بابه ويبلغه الرسالة مشكوراً ومأجوراً من رب العالمين، فلا تمضى عشرون دقيقة بعد ذلك ، حتى أجد السائق أمام شقتى يصافحنى معزياً ، ويضع نفسه فى خدمتى بلا تذمّر .

ويتسلل ضوء الفجر إلينا وأنا وأسرتى فى السيارة على الطريق إلى مدينتى « دسوق » ، وأصل إلى بيت الأسرة قبل الثامنة صباحاً ، فأجده يموج بالأهل والأقرباء والأصدقاء المخلصين من الرجال والنساء ، وأعبر باب البيت ، فأجد بعض الأهل والأصدقاء فى الدور الأرضى منه ، فأتقبل عزاءهم شاكراً لهم عطفهم ، وأصعد بساقين خائرتين إلى الدور الأعلى ، فأعبر فى طريقى إلى غرفة نوم أمى يرحمها الله بصالة مزدحمة بسيدات الأهل والأصدقاء ، متشحات بالسواد ، وادخل الى الغرفة فأراها فى فراشها الأثير مغطاة بملاءة بيضاء ، فى نفس الموضع الذى تركتها فيه آخر زيارة لها ، قبل يومين فقط ، فأقف أمام الفراش جامداً بلا حراك ، وأقرأ فاتحة الكتاب بصوت متهدج ، ثم أخرج من جيبى مصحفى ، وأقرأ فيه ما تيسَّر لى من آى ذكر الحكيم ، وتلحق بى شقيقتى ثم شقيقى، ثم ينفجر فى أعماقى فجأة ينبوع الحزن الدفين، وينساب الدمع المرير ، وتطلب منى شقيقتى وشقيقى الخروج من الغرفة، فاستمهلهما بعض الوقت وأجلس إلى مقعد قريب بعد أن خارت ساقاى وعجزتا عن حملى ، وأواصل القراءة الدامعة لوقت طويل ، وتلح

على شقيقتى مرة أخرى فى الخروج ، فأطلب منها أن تكشف لى عن وجه أمى لألقى عليه النظرة الأخيرة قبل أن تغيب عنى صورته للأبد ، وتفعل بعد تردد قصير فاتأمله للحظات وألحظ صفاءه الغريب ، وأنحنى على جبهتها لأقبلها القبلة الأخيرة ، وتلمس شفتاى جبهتها فأشعر ببرودة الثلج فى شفتىَّ لفترة طويلة بعدها ، ثم أعيد الغطاء إلى موضعه ، وأغادر الغرفة هابطاً الدرج إلى حيث الأهل والأشقاء ، وأنا أشعر بأن جزءاً غالياً من نفسى وحياتى قد مات ، ولم يعد هناك من أمل فى استعادته مرة أخرى !

تقول الحكمة البوذية القديمة إن الطفل بلا أب كالبيت الذى بلا سقف ، وأن الإنسان حين يفقد أباه - مهما كان قد بلغ من العمر - فإنه يفقد السقف الذى كان يحميه من صواعق السماء ، ويصبح بلا غطاء يحميه من عوامل التربة ، ويفقد فيما يفقد برحيل الأب الإنسان الوحيد فى الدنيا بأسرها الذى يُسعده أن يكون هو أفضل منه .

أما حين يفقد أمه - ومهما كان قد بلغ أيضًا به العمر - فإنه يفقد الأرض التى كان يقف فوقها مطمئناً ومستشعرا الأمان والاطمئنان ، فيصبح معلقاً فى الهواء ، لا أرض تحته تشعره بالاستقرار والثبات ، ولا سقف فوقه يحميه من صواعق السماء ، ولا جذور يرجع لها ولا مرفأ تؤوب إليه سفينته كلما اضطربت بها الأمواج .

ولقد كانت أمى يرحمها الله هى المرفأ الآمن الذى يرجع اليه الأبناء من أسفارهم الطويلة فى دروب الحياة ، ويلتقى عندها « الغرباء » الذين

تفرّقت بهم سُبل الحياة ، ويعصم وجودها فى الحياة عقد الإخوة المشتتين فى البلاد من الانفراط ، فأى مرفأ آمن سوف نرجع اليه الآن ، وقد غاب الأمان والاطمئنان إلى الأبد ؟

وتمضى المراسم الحزينة فى طريقها المرسوم ، وألحظ كما لحِظت من قَبل أن معظم ما يؤدى خلال هذه المراسم مقابل أجرٍ معلوم ويقوم به مختصون محترفون فى أوروبا وأمريكا ، إنما يُؤدَّى فى بلادنا تطوعاً واحتساباً وطلباً للأجر العظيم من رب العالمين ، كما ألحظ أيضًا أننا ونحن أصحاب الحزن المُقيم نكاد نقف كالضيوف وسط الآخرين من أهل المروءة والشهامة ، الذين يقومون عنا بكل ما ينبغى لنا أن نقوم نحن به فى هذه المناسبة الحزينة ، وأعجب لطبيعة المصريين التى لا تنفر من المشاركة فيما يخجل الإنسان الأوروبى أو الأمريكى من أن يشارك فيه من المراسم والإجراءات الحزينة ، فيتطوعون للنهوض به دون أصحاب المُصاب وينحونَهم عنه ويتهللون للقيام به طلباً لمثوبة الخالق العظيم .

وأتناقش فى ذلك بعد عودتى للقاهرة مع صديقى أحمد بهجت فأجدنى أقول له متسائلاً : أى دافع آخر يمكن أن يدفع إنسانًا للقيام بما يجفل منه الآخرون ، سوى دافع الدين ورجاء المثوبة من رب العالمين؟ويتدخل صديق آخر فى المناقشة فيلفت نظرنا إلى أن من يتطوعون لحمل الجثمان إلى مستقره الأخير ، وهم عادة من فضلاء الناس الذين يسيرون لمسافة طويلة على الأقدام ، إنما يقول أحدهم للآخر ، وهو يطلب منه أن يخلى له مكانه تحت الجثمان لبعض الوقت : آجرنى !

أى دعنى أحصل على بعض الأجر الذى قد حصلت عليه من الله بمشاركتك فى حمله ، فلا يرد الآخر رجاءه ، لكنه لا يبتعد عنه طويلا ، وإنما يرجع إليه بعد دقيقتين على الأكثر ، ويقول له نفس الكلمة : «آجرنى » ويرجع إلى موضعه السابق ، إلى أن يرجوه آخر أن يقاسمه بعض الأجر من رب العالمين ، فاللهم لا تحجب أجرك ومثوبتك عن أهل الفضل العظيم آمين يا رب العالمين .

أقف فى السرادق الكبير المقام أمام منزل الأسرة ، وقد أذّن المؤذن للظهر، فأفاجأ بالأصدقاء الثلاثة الذين كانوا معى قبل ساعات فى القاهرة ، وقد وصلوا لاهثين فمتى ناموا ومتى استيقظوا من نومهم ، وكيف قطعوا رحلة الساعات الثلاث من القاهرة إلى مدينتى بالأقاليم ؟

عاتبت الأصدقاء على تجشّمهم متاعب السفر بلا نوم فرفضوا عتابى لائمين ، وعاتبت من فوجئت بهم بعد حين قادمين من القاهرة وشكرت لهم فضلهم ومروءتهم ، راجياً من المولى أن يحسن مثوبتهم على عطفهم وكرمهم فتجاوزوا عن عتابى عاتبين .

ثم مللت العتاب بعد ذلك حين تكاثر القادمون من القاهرة « موجة بعد موجة » من الزملاء الأعزاء بالأهرام ومن الأصدقاء والأحباء طوال يوم الوداع الحزين ، وحتى بعد منتصف الليل وانفضاض المأتم ، وطوال اليومين التاليين حتى سألت نفسى حائراً كيف أرد لكل هؤلاء الأحباب ديونهم الثقيلة فى عنقى الضعيف ؟

للمصريين فى العزاء والمواساة تقاليد أصيلة ، لم تؤثر فيها بعد

الحضارة المادية ، ولم تجفف منابعها ، ولسوف تبقى فيما أعتقد إلى الأبد الآبدين ؛ لأنها ترتبط لديهم بالباعث الذى لا يقبل التغيير ، وهو الباعث الدينى الذى يعد أصحابه بالأجر العظيم عن كل خطوة يخطوها الساعى فى مواساة الآخرين والتخفيف عنهم ، فلئن لم يكن هذا الباعث وحده هو المسئول عن ذلك فأى دافع آخر يمكن أن يدفع إنسانًا لأن يعطل مصالحه ، ويهجر أعماله ، ويركب الصعب فى سفر طويل ليقول لإنسان آخر كلمة عزاء ومواساة ؟ .

بل وماذا يدفع إنسانًا لأن يسير فى موكب حزين لمسافة تزيد عن الكيلو متر فى وداع راحل ، ثم لا يكتفى بذلك ، وإنما يرجع فى المساء ليجدد العزاء لأهل الراحل الكريم ؟

ومن هم هؤلاء الأشخاص الفضلاء الذين يضعون أنفسهم فى خدمتنا منذ الصباح الباكر حتى ما بعد منتصف الليل ، يُصفّون المقاعد ويستقبلون الضيوف ويهرولون لقضاء الحوائج ويتحفزون لتلبية أية رغبة أو إشارة من أهل المصاب ؟

لقد كدت أتصور أن بعضهم من طلّاب العطاء المادى بعد انتهاء المراسم ، فإذا بى أكتشف أنهم جميعًا من الفضلاء المتطوعين ، وأن بعضهم من أصدقاء الطفولة القدامى لإخوتى ، وأن هذا هو حال الأهل الطيبين فى الريف المصرى الأصيل ، فاللهم أثبهم عنا خير الثواب ، وأجزل لهم من عطائك ما لا يدانيه شىء من عطاء الدنيا كلها ، فلقد خففوا عنا الكثير والكثير .

ولقد مضت أيام العزاء الثلاثة فلم أبِت خلالها فى بيت الأسرة ليلة واحدة، أو لم يسمح لى الأحباب بمعنى أصح بذلك فتناوبتُ المبيت ليلةً بعد أخرى فى بيوت الأحباء من أصدقاء الطفولة، ولقد ترك أحدهم عمله وأسرته فى الإسكندرية ، و « أقام » معى أيام العزاء الثلاثة فى مدينتى وأمضيت إحدى الليالى فى بيته القديم بدسوق .

فكان فى انشغالى بهم وانشغالهم بى ما شغلنى عن الانفراد بنفسى والاستسلام لحزنى ، حتى لقد لُمت نفسى باطنياً على إحساس عجيب راح يؤرقنى طوال هذه الأيام الثلاثة ، وهو أننى لم أجد الوقت الكافى ولا الفراغ المطلوب لكى أحزن حزنا كافياً على رحيل أمى وغيابها الأبدى عن حياتنا ، وكدت « أحزن » لهذا الإحساس نفسه ، لولا أن تذكرت أننى قد قرأت فى رواية السكّرية للعظيم نجيب محفوظ إن هذا الإحساس نفسه قد ساور كمال أحمد عبدالجواد عقب رحيل أبيه عنه ، فقال لنفسه فى حواره الباطنى هذه العبارة التى وجدتها تتردد فى داخلى طوال تلك الأيام :

- إنى حزين يا أبى لأننى لم أحزن عليك كما ينبغى !

وأدركت أنه قد يكون إحساساً مألوفاً فى الأيام الأولى من الرحيل ، وأن الحزن الغائر إنما يبدأ كالطفل الوليد ، ثم ينمو ويتعملق مع الوقت قبل أن تؤدى الأيام دورها الخالد معه وتحيله إلى حزن هادىء مرة أخرى ، فكأنها دورة أخرى كدورة حياة الإنسان تبدأ بطفولة ثم الشباب ثم الشيخوخة .

أما الحزن فإنه لا يعبر عن نفسه التعبير الصحيح فى صدمة الأيام الأولى حين ينشغل الإنسان بواجبات عديدة ضرورية ويحيط به الأصدقاء من كل جانب ، لكنه يتسلل إلى النفس ويتكثَّف تدريجياً ، بعد أن ينفض الزحام ويرجع الإنسان إلى حياته العادية ويستشعر مرارة الفراق الأبدى .

ولقد تذكرت فيما أعقب ذلك من أيام ذلك المثل الأفريقى القديم الذى يقول « إن الإنسان لا يموت مرة واحدة وإنما مرتين ، مرة حين يرحل أبوه عن الحياة وأخرى حين تؤذن شمس حياته هو بالمغيب ، ووجدتنى أضيف إليه تعديلا جديداً فأقول بل هى ثلاث مرات وربما أكثر مضيفاً إلى ذلك رحيل الأم ، ورحيل ثمرات القلوب عند المُبتلين ، ولقد ماتت أمى رحمها الله مرتين ، قبل أن تؤذن شمس حياتها بالغروب ، حين ذاقت علقم الثكل مرتين خلال عمرها الملىء بأحزان الفراق ، رحمها الله وأحسن مثوبتها بما صبرت وبما تصبرت عليه من آلام وأحزان ، وأغمر اللهم بفضلك وكرمك كل من واسانا فى رحيلها عن الحياة ، وعفوا لهذا الحديث الحزين الذى تطفَّلت به عليك ، ولم تكن النفس لتسمح لى بغيره فى مثل هذه الظروف . . والسلام .



موعد مع الربيع

كان الأستاذ الجامعى يلقى محاضرته على تلاميذه كعادته فى مثل هذا الموعد من الضحى كل يوم ، وكان الوقت ربيعاً وقد اكتست الأشجار بأوراقها الخضراء الزاهية وتفتحت الورود بألوانها الجميلة ، واختفت السحب الكثيفة التى أظلّت الدنيا طوال شهور الشتاء الكئيبة ، فحانت من الأستاذ نظرة من النافذة إلى الحديقة المحيطة بالمكان ، فتأملها بعمق كأنما يراها لأول مرة ، ثم صمت فجأة وغاب عن المحاضرة والدرس وكل شىء للحظات ، استرد بعدها نظرته من النافذة إلى طلبته ، وقال لهم ذاهلاً وكأنما يحدث نفسه : عفواً لن أستطيع استكمال المحاضرة .. لأننى على موعد مع الربيع !

ثم جمع أوراقه وكتبه ووضعها فى حقيبته الجلدية ، وغادر قاعة الدرس بخطوات مسرعة ، ولم يرجع إليها بعد ذلك مرة أخرى بقية حياته!

أما هذا الأستاذ « الجرىء » فهو الفيلسوف الأمريكى جورج سنتيانا الذى ولد فى إسبانيا لأم إسبانية وأب أمريكى ، وانتقلت به أمه مع زوجها الثانى إلى أمريكا ، ودرس فى جامعة هارفارد الأمريكية ، وتخرج

زوجها الثانى إلى أمريكا ، ودرس فى جامعة هارفارد الأمريكية ، وتخرج فيها ثم اشتغل بتدريس الفلسفة فى الجامعة نفسها عقب تخرجه ، وعمل محاضراً لمدة تسع سنوات ، ثم أستاذاً مساعداً لتسع سنوات أخرى ، ثم أستاذاً لكرسى الفلسفة بالجامعة إلى أن داهمته اللحظة التى قرر فيها أن يغيِّر حياته كلها ، وهو يقترب من الخمسين مَن عمره ، فهجر مهنة التدريس التى لم يجد نفسه فيها عام ١٩١٢ ، وهجر أمريكا كلها التى لم يكن سعيداً بحياته على أرضها ، وسافر على أرضها ، وسافر إلى أوروبا وراح يتنقل بين مدينة أكسفورد فى انجلترا ، وروما فى إيطاليا وعدد آخر من المدن الأوروبية حتى مات بعد حوالى ٤٠ عاماً من« لحظة التنوير » هذه ، ورحل عن الحياة عام ١٩٥٢ ، وهو فى التاسعة والثمانين من عمره .

وخلال هذه الفترة التى تحرر فيها من قيد حياة لم يحبها ، وعاش حياته كما أرادها لنفسه ، أصدر أهم مؤلفاته الفلسفية التى شكلت مذهبه، وعاش معتمداً على مدخراته القليلة التى جمعها من سنوات التدريس بالجامعة ، ومن أرباح كتبه ، وأعانه على ألا يحتاج إلى دخل الوظيفة وقيودها مرة أخرى ،أنه عاش حياته كلها زاهدًا فى الترف ومظاهر الثراء ، يكفيه القليل لكى يحيا سعيداً يفكر ويتأمل جمال الطبيعة والعلاقات الإنسانية ، ويبدع كالطائر الحر الذى ينتقل من شجرة إلى أخرى متحرراً من كل القيود .

تُرى كم منا مـن يستطيع أن يتحرر مـن قيود حياة لا يحبها أو عمـل

لا يجد فيه نفسه ويلحق بموعده مع الربيع ذات يوم ، كما فعل هذا الفيلسوف الأمريكى ؟

إن كثيرين منا قد يشتكون من حياتهم التى لا يستشعرون فيها السعادة ، أو من عمل فرضته عليهم ظروف الحياة ، أو من إقامة فى مدينة صاخبة لا يستشعرون فيها الراحة ، ومع ذلك فهم لا يفكرون فى تغيير حياتهم ، واختيار العمل أو الحياة التى تتوافق مع أفكاهم وطموحاتهم إما عن عجز عن تحقيق هذا التغيير ، وإما عن خوف من تبعاته ، وإما عن افتقاد للجرأة النفسية التى يتطلبها اتخاذ مثل هذه الخطوة المصيرية ، وليس من عائد لاستمرار التشكى من حياة لا يستشعر فيها الإنسان السعادة ، مع استمرار العجز عن التغيير إلا المرارة وتكدير صفو الحياة ، واستنزاف طاقة الإنسان النفسية فى السخط والشكوى والأنين إلى ما لا نهاية .

أذكر أن شاباً مصرياً مهاجراً إلى ألمانيا منذ عشر سنوات ، قد ألحَّ على سكرتيرتى بضع مرات برغبته فى الاتصال بى تليفونيا من المدينة الألمانية ، التى يقيم بها ؛ لأنه كما قال لها فى أشد الحاجة لأن يتحدث معى ويبثّنى بعض شجونه ، ورددت على مكالمته فراح يروى لى قصة هجرته لألمانيا ، وكيف سافر إليها على غير رغبة أمه التى كانت مرتبطة به عاطفياً أكثر من بقية إخوته؛ لأنه الأصغر الذى يقيم معها فى مسكن واحد ، فى حين تزوج بقية الإخوة واستقلوا بحياتهم ، لكن أمه فى النهاية لم تشأ أن تعترض طريق أحلامه ووافقت كارهةً على سفره .

وهاجر بالفعل إلى ألمانيا فلم يمض على سفره إليها أكثر من ٤٠ يوماً فقط؛ حتى رحلت عن الحياة ولم يستطع أن يودعها الوداع الأخير ، وواصل حياته فى مهجره الجديد مكابداً الاحساس المؤلم بالذنب تجاه أمه، التى رحلت عن الحياة حزينةً لفراقه ، وواجه فى غربته أهوالاً عديدة حتى تمكن فى النهاية من تحقيق نجاحه وتصحيح وضعه القانونى فى المهجر وحصل على الإقامة ، وسوّى موقفه من التجنيد فى بلده ، فاستطاع أن يرجع إليها بعد بضع سنوات لزيارةالأهل والعودة للمهجر بغير مشاكل قانونية .

وتقدَّم فى عمله ؛ حتى أصبح مديراً لأحد فروع سلسلة شهرة لمطاعم الوجبات السريعة فى المانيا ، واشتهر فى عمله بالحزم والصرامة والتفانى ، واختاره رؤساؤه لإصلاح أوضاع فرع يحقق الخسائر بدلاً من الأرباح ، وتسلم إدارته فلم يمض عام واحد ، حتى كان هذا الفرع قد تخلص من خسائره ، وحقق أرباحاً مجزية ، وانضم إلى قائمة الفروع الناجحة ، ولكنه ليس سعيداً بحياته ولا بعمله ، على الرغم من كل ذلك ، ولا يعرف سبباً محدداً لتعاسته ، ولا يعرف سوى أنه غير سعيد بالنجاح ، ولا بالمدخرات التى جمعها ولا بالشقة الفاخرة التى يستأجرها ، ولا يجد ما يفعله بعد انقضاء ساعات عمله ، ولا فى عطلة نهاية الأسبوع .

وقد يقضى فى عمله بضع ساعات إضافية كل يوم ؛ لأنه لا يجد من يتحدث إليه إذا رجع إلى شقته الخالية ، وقد يذهب إلى العمل فى عطلة نهاية الأسبوع ؛ لأنه يشعر بالاكتئاب والحزن حين يقضى العطلة وحيداً

فى مسكنه ، وهو يحقق النجاح فى عمله ، ولكنه لا يحب هذا العمل ولم يتمناه لنفسه ، وهو يقيم فى مدينة ألمانية ، ولكنه لا يحب الحياة فى ألمانيا ويشكو من جفاف المشاعر وبرودة العواطف والحياة الصارمة التى يحياها. البشر هناك ، ويشعر بالحنين إلى بلده وأهله واخوته ومرابع الطفولة والصبا وأصدقاء الماضى الجميل ، ويفتقد أمه بشدة رغم مرور عشر سنوات على رحيلها عن الحياة ، ولكنه على الرغم من كل ذلك لا يفكر فى إنهاء هجرته والعودة للاستقرار فى بلده مع أنه يستطيع من الناحية المادية أن يفعل ذلك إذا أراد .

وقد سألته فى ختام محادثة طالت لما يقرب من الساعة : ولماذا تعيش فى بلد لا تحب الحياة فيه ، وتمارس عملاً لا تشعر بالرضا عنه ، وأنت قادر ماديًا على أن تحيا حيث تريد الحياة، وتعمل بما تحب من الأعمال ؟ ولم يجد جواباً مقنعاً على السؤال ، ولم يُزد عن أن قال حائراً ، إنه يريد التغيير ، ولكنه غير قادر عليه ويطلب منى أن يتصل بى مرة كل أسبوع ؛ ليشركنى معه فى شجونه وهمومه إلى أن يجد فى نفسه القدرة على الاختيار بين أن يرضى بحياته الجديدة ويتواءم معها ، أو يرجع إلى بلده ويحيا الحياة التى يريدها ويرضى بها ، ويقبل بتبعات مثل هذا القرار المصيرى .

وليس هذا الشاب وحده هو الذى يواجه هذه الأزمة ، فكثيراً ما أجيب مكالمات تليفونية مماثلة لشباب مهاجرين إلى دول العالم المختلفة ، وأحدهم راح يتصل بى من نيويورك بضع مرات كل أسبوع لفترة طويلة ،

ويبكى وهو يحدثنى عن همومه وتعاسته ، إلى أن نجحت بعد عناء طويل فى التوصل معه إلى صيغة ملائمة تسمح له بمواصلة حياته فى مهجره بغير الانقطاع عن أهله وأصدقائه فى بلده ، وكان مما نصحته به أن يحسم أمره ويختار لحياته ، فإن لم يكن قادراً على العودة إلى وطنه لأسباب اجتماعية ومادية فليقبل بحياته فى مهجره ويكتشف جمالها ويثرى حياته بالعلاقات الإنسانية ، التى تبعث الدفء فى نفسه ، ويرجع إلى بلده كلما اشتدت عليه ضغوط الحياة ومرض الحنين للوطن ليعيد شحن بطارياته بالزاد العاطفى والإنسانى ، ويرجع إلى حياته الجديدة وعمله ، بقدرة أفضل على المقاومة والاستمرار .

وأزمة الاغتراب عن الأهل والوطن ليست وحدها أبرز هذه الأزمات النفسية ، التى تتمثل فيها مشكلة أمل الإنسان فى التغيير وعجزه عنه لأسباب موضوعية أو لأسباب نفسية ، فكثيراً ما استقبل زائرات وزواراً يشكون لى من ضيقهم بحياتهم الشخصية ، وعجزهم عن مواصلة احتمالها ، فإذا سألتهم ولماذا لا يغيرون حياتهم إذا كانوا قد وصلوا بالفعل إلى نقطة العجز النهائى عن التواؤم معها ، تلقيت الإجابة التقليدية ، وهى : لا أستطيع مواجهة تبعات التغيير ! أو لا أقوى على مواجهة المجتمع المحيط بى إذا أقدمت على هذه الخطوة المصيرية ! فيكون تعليقى على هذه الاجابة ، هو أن ما نعجز عن تغييره لا مفر لنا من احتماله والتواؤم معه ، والضنّ بأوقات حياتنا القصيرة أن تبدد فى معاناة لا طائل من ورائها .

ويكون تعليقى أيضاً ان الإنسان مسئول مسئولية كاملة عن حياته الشخصية ، فإن شقى بها لأسباب قدَرية لا حيلة له فيها ، ولم يكن راغباً فى تغييرها ترجيحاً لاعتبارات إنسانية سامية كسعادة الأبناء فلا بأس بذلك ، لكن عليه فى الوقت نفسه أن يحاول تحجيم الخسائر والكف عن الشكوى والأنين ، والرضا عن اختياره لأن يحيا حياة لا تحقق أحلامه فى السعادة الشخصية ، ترجيحاً لسعادة من يتحمل أمانة المسئولية عنهم ، أما استمرار الرفض لمثل هذه الحياة ، واستمرار العجز أيضاً عن تغييرِها فلا عائد له إلا المرارة والكآبة ، وفقد القدرة على تذوق جمال الحياة .

والإنسان ملزم بأن يتحمل مسئوليته عن الحياة التى سعى اليها بإرادته لأن النكوص عن ذلك جبن وهروب وأنانية ، وملزم أيضاً بأن يسعى إلى تغييرها ، إذا عجز نهائياً عن احتمالها ، ولم يكن لإقدامه على التغيير ضحايا من الأعزاء والأبرياء ، ذلك أن النكوص عنه أيضاً جبن وخيانة للنفس !

ومازلت أذكر حتى الآن تلك السيدة الجميلة ، التى أمضت ساعة كاملة تبكى فى مكتبى ، وهى تحكى لى عن معاناتها مع زوجها الذى لم تنجب منه لأسباب تتعلق به ، ومن خياناته المتكررة لها ، وإيذائه النفسى لها حتى مات الحب فى قلبها تجاهه منذ سنوات طويلة ، فما أن توقفت قليلاً لالتقاط أنفاسها حتى سألتها مندهشاً : وماذا يضطرك لاحتمال حياة لا تحقق لك إلا التعاسة ، ونحن لا ننصح من يشقى بحياته الخاصة باحتمالها إلا من أجل هدف نبيل هو سعادة الأبناء ؟ فإذا

بها تخشى التغيير ، وتكره أن تواجه المجتمع من حولها ،وهى مطلقة ؛ ولهذا فهى تحتمل حياة لا تسعد بها ولا ترغب فى تغييرها ! وهذا فى تقديرى هو الجبن عن مواجهة الحياة والمجتمع « والخيانة » الحقيقية للنفس !

لقد فعلها الفيلسوف الأمريكى ذات يوم بعيد ،حين امتلك الشجاعة النفسية التى مكنته من الإقدام على التغيير .

فكم منَّا يتطلع لمثل هذه اللحظة القدَرية التى يستطيع فيها أن يقول للعمل الذى لا يحبه ، والصحبة التى لا يستريح إليها ، والحياة التى لا ترضيه : عفوا إننى على موعد مع الربيع !

تراثيم الحب والعذاب

أشياء لا تعوض

هل تحزن كثيراً حين تفقد صداقة أحد ؟

أكثر الناس يفعلون ذلك وأنت وأنا منهم . . غير أن بعضنا قد يرفض الاعتراف لنفسه بهذه الحقيقة أو « يخجل » منها ويعتبرها ضعفاً لا يليق به ، مع أن الصداقة الحقيقة ثروة غالية تستحق أن يحزن الإنسان كثيراً حين يفقدها ، وأن يضطرب معنوياً ووجدانياً كلما فقد جزءاً ثميناً منها .

فإذا كنت ترى حولك بعض من لا يحزنون لفقد صداقة أحد ، فاعلم أن هؤلاء لا يصلحون أصلاً للصداقة ولا يعطون من أنفسهم ومشاعرهم لأحد شيئاً لأنهم متوحِّدون دائماً مع أنفسهم ، ولا يعرفون من معانى الصداقة إلا معنى الاستفادة من الصديق ، فإذا جفَّت منابعه أو ضاق بكثرة ما يُعطى لهم دون أن يأخذ منهم شيئاً ، وانصرف عنهم لم يأسفوا لفقده ، بقدر ما أسفوا على ما كانوا يجنونه من وراء صداقته ، وهؤلاء هم فى كل مرحلة من العمر أصدقاء مرحليُّون ويبدِّلون صداقاتهم ، كما يبدِّل الإنسان ربطة عنقه بلا مشاكل !

والإنسان العاقل هو من يكسب صديقاً كل يوم ولا يخسر أحدا من أصدقائه ، وهو أيضاً من يحزن حزناً شديداً حين يفقد صديقاً مخلصاً أو تتقطع بينه وبينه الصلات ، أو تتدخل ظروف خارجية لإفساد الصداقة أو القضاء عليها .

والإنسان مُحاط دائماً بالمعارف وأصدقاء العمل والعلاقات الاجتماعية، لكن أصدقاء الروح من بينهم دائماً قليلون ، وإذا فقد أحدهم فخسارته فيه فادحة ولا تعوّض ؛ لأنها تعنى فقد جزء ثمين من روح الإنسان وذكرياته وعمره ، ينقضى بانقضاء صفحة هذه الصداقة .

ومنذ فترة قصيرة قابلت وزيراً معروفاً بكثرة معاركه التى خاضها منذ تولى الوزارة ، وكنت أعرفه ـ قبل أن يشغل منصبه ـ كثير الأصدقاء والعلاقات الاجتماعية ، وجاء لقائى به هذه المرة مصادفة فى حفل عام فسألنى : لماذا لم ترسل لى كتابك الأخير الذى قرأت عن صدوره فى الصحف ؟

ولا أعرف لماذا أجبت سؤاله هذا بسؤال آخر فقلت له : وأين تجد وقتا للقراءة وأنت مشغول دائما بمهامك العديدة ومعاركك الساخنة على كل الجبهات !

فإذا به يجيبنى : فى الفراش قبل النوم ، فأنا أقرأ قبل النوم وأضيق بالتقارير الرسمية وبقراءة الصحف وبالوحدة وبالأرق ، فأقرأ الأدب بعض الوقت؛ لأهدىء أعصابى ، وأنسى كربى وجفاف حياتى ، وهوانى على الناس !

وتأملت إجابته طويلاً ولم أعجب لها ؛ فكل إنسان وحيد فى أعماقه ولو اشتد الزحام حوله وكثرت شواغله ، ولا يخفف عن بعض وحدته الداخلية إلا دفء العاطفة الصادقة ودفء مشاعر الصداقة المخلصة .

غير أن أنواء الحياة قد لا تدع بعض الصدقات على حالها ، وإنما تمتحنها أحياناً بالاختبارات القَاسية ، فيصمد منها ما يصمد وينهزم أمامها ما ينهزم ، وأقسى هذه الأنواء هى تصاريف القدر التى تفرق بين الأصدقاء بلا رجعة ، ولعلى مازلت أذكر حتى الآن صورة وجه الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل ، حين رحل عن الدنيا صديقه «التاريخى » جمال عبدالناصر وكيف شعرتُ ـ كما عبرتُ لبعض أصدقائى وقتها ـ بأن هيكل يبدو لى ، وكأن أحداً قد شق جسمه بالطول من الرأس إلى القدم بالسيف ، واقتطع منه جزءاً غالياً هيهات أن يرجع لموضعه مرة أخرى !

ولست أميل للاعتقاد بأن بعض هذا الأثر كان يرجع إلى دوافع ذاتية لدى هيكل كالخوف من فقدان النصير أو النفوذ أو المكانة ، فلقد أثبتت تجربة الأيام أنه أقوى من كل ما واجهه من أحداث وتطورات بعد ذلك ، لكنها خسارة فادحة حقا أن تفقد من لا تحتاج معه إلى شرح طويل لكى يفهم عنك أفكارك ، ولا تحتاج أنت إلى مقدمات طويلة منه لكى تفهم خواطره وهواجسه وأفكاره ، ولقد قيل عن صداقة هيكل بعبد الناصر أنها كانت قد تعمقت فى السنوات الأخيرة من عمر عبد الناصر لكى يتوازن مرة أخرى ، ويعوض فقده لتلك الصداقة التاريخية ، تماما كما

فعل الأديب ووزير الثقافة الفرنسى الأسبق أندريه مالرو ، بعد فقده لصديق « تاريخى » آخر هو الجنرال ديجول ، ولقد قيل الكثير عن سر استمرار صداقة هيكل وعبد الناصر منذ التقى الاثنان لأول مرة وصمودها فى وجه كل المؤامرات والدسائس ، والعواصف ، فى حين تصدعت وانهارت صداقات عبد الناصر بمعظم رفاقه من ثوار يوليو، وشغل هذا اللغز كثيرين ممن كتبوا عن ثورة يوليو وتطوراتها وتعجبوا له ، وكان مبعث عجبهم هو ما يعرفون عن صعوبة استمرار صداقة من هذا النوع فى أجواء السلطة ، التى قال عنها الحسن الثانى ملك المغرب فى مذكراته : « أنها كالرحى الدائرة إذا اقتربت منها برفق صقلتك ، وإذا اقتربت منها بشدة جرحتك وآذتْك » .

غير أن الراحل حلمى سلام قد كتب فى مقال له قبيل رحيله عن الحياة ، أنه ناقش هيكل فى ذلك ففسر له استمرار صداقته بعبد الناصر رغم كل الدسائس والمؤامرات ، بأنه قد ألزم نفسه معه بشيئين أساسيين : ألاّ يكون صغيراً فى عينيه فيغتاب عنده زملاءه أو يدس لهم ، وألاّ يطلب منه شيئاً شخصياً لنفسه أو لأسرته .

ولا شك أن هيكل قد التزم بذلك بالفعل فى علاقته بعبد الناصر ، لكنى اعتقد أن هناك عاملاً ثالثاً ، كان له أبلغ الأثر فى استمرار الصداقة ودوامها ، وهو ذكاء هيكل نفسه الذى جعل احتياج عبدالناصر إليه نفسياً و إنسانيا وفكرياً و إعلامياً وسياسياً ، أكبر من احتياج هيكل نفسه لعبد الناصر ، ولهذا صمدت الصداقة ودامت حتى اللحظة الأخيرة من حياة الصديق التاريخى .

غير أن فقد الصديق لأسباب قدرية يختلف كثيراً عن فقده لأسباب دنيوية ، ما كان أسهل على الإنسان من أن يتفاداها ويحمى الصداقة منها .

ومن أشهر الصداقات فى تاريخ الأدب العربى الحديث التى تصدعت لمثل هذه الأسباب ، صداقة الدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين ، العالم المحقق المؤرخ ، وقد تقوَّضت عقب تعيين الدكتور أحمد أمين عميدا لكلية الآداب عام ١٩٣٩ ، وكتب الأديب المحقق عن فجيعته فى هذه الصداقة فى مذكراته الشخصية ، فقال :

« وكانت مأساة العمادة أنى فقدت بسببها صداقة صديق من أعز الأصدقاء وما أقل عددهم ، كان يحبنى وأحبه ويقدرنى وأقدره ، ويطلعنى على أخص أسراره وأطلعه ، وأعرف حركاته وسكناته ويعرفها عنى ، ويشاركنى فى سرورى وأحزانى وأشاركه ، وكنت هواه وكان هواى ، واستفدت من مصادقته كثيراً من معارفه وفنّه ووجهات نظره ، سواء وافقته أو خالفته ، فأصبح يكوّن جزءاً من نفسى ويملأ جانباً من تفكيرى ومشاعرى على اختلاف ما بيننا من مزاج ، فهو أقرب إلى المثالية وأنا أقرب إلى الواقعية ، وهو فنّان يحكمه الفن وأنا عالم يحكمه المنطق ، وهو يحب المجد ويحب الدَّوى ، وأنا أحب الاختفاء وأحب الهدوء ، هو عنيف إذا صادق أو عادى ، وأنا هادىء إذا صادقُت أو عاديتُ .

ولعل هذا الاختلاف بيننا فى المزاج هو الذى ألفّ بيننا ، فأشعره أنه يكمل نقصه بى ، وأشعرنى أنى اكمل نقصى به ، فجاءت العمادة

مفسدة ، لهذه الصداقة ، لأنه بحكم طبعه أراد أن يسيطر ، وأنا بحكم طبيعتى أردت أن أعمل بما أرى ؛ لأنى مسئول عما أعمل ، ثم ولى منصباً أكبر من منصبى يستطيع منه أن يسيطر على عملى ، فأراد السيطرة وأبيتها ، وأراد أن يحقق نفسه بأن ينال من نفسى فأبيت إلاّ أن أحتفظ بنفسى ، فكان من ذلك كله صراع أصيبتْ منه الصداقة ، فحزن لما أصابها وحزنت ، وبكى عليها وبكيت ! »

وكانت مشكلة الدكتور طه حسين هى قوة شخصيته وطغيانها إلى حد كبير على من حوله ، ولهذا فحين كان عميداً لكلية الآداب قبل أحمد أمين ، انفرد بشئونها دون وزير التعليم أو وكيل الوزارة ، وحين نقل إلى الوزراة مستشاراً للوزير وولى أحمد أمين العمادة ، أراد ان يكون له فى كلية الآداب النفوذ نفسه الذى كان له فيها وهو عميدها ، فتعارضت الإرادتان ، ونشب الخلاف وتصدعت الصداقة . غير أن تصدع الصداقة لا يحوّل مشاعر الأوفياء تجاه أصدقائهم السابقين من الود إلى الكراهية ، حتى ولو امتزجت لديهم هذه المشاعر بأحاسيس المرارة والأسى ، ولعل كلمات أحمد أمين الناعية لصداقته السابقة لطه حسين ، تعكس عمق أساه وأسى رفيقه أيضاً على انهيار الصداقة التى كانت عميقة بينهما .

ولا عجب فى ذلك فقد تضطرنا ظروف الحياة للخلاف مع بعض الأصدقاء ، وقد نفشل فى حماية الصداقة من أثر هذا الخلاف عليها فتتصدع وتنهار كما ينهار ، بيت قديم ، لكن الأسى على فقد الصداقة

على الرغم من ذلك لا يغيب ، ويظل الإنسان يتمنى دائماً فى أعماقه لو لم يكن قد سمح لهذا الخلاف اللعين بأن يتصاعد إلى الحد ، الذى لم يعد معه ممكناً انقاذ الصداقة من الدمار .

وأنا على المستوى الشخصى مازلت حزيناً حتى الآن على فقدى لصداقة صديق خسرته منذ ما يزيد عن ١٥ عاماً ، وكثيراً ما تذكرته وتجدد أساى لانهيار الصداقة بيننا ، كلما قرأت وصف الدكتور أحمد أمين لعلاقته بصديقه ، وكيف كانا يكملان كل منهما الآخر ، ومن عجب أننى قد فقدت هذا الصديق لأسباب مشابهة إلى حد كبير للأسباب نفسها التى قَوضت صداقة الأديبين الكبيرين ، فإن كان ثمة اختلاف بين الحالتين فهو أن صداقتنا الروحية الحميمة ، قد تلقت أول معول هدم فى أساسها ، حين جمعتنا تجربة العمل لمدة عامين فقط فى مكان واحد لأول مرة ، فلمست فيه بعض ما لم أكن أعرفه عنه ، أو أرضاه منه ، وقد كانت صداقتنا قبل ذلك بعيدة تماماً عن مجال العمل ، لكن البنيان المتين لم يتصدع ، على الرغم من ذلك لأول هدم ، وإنما تجاوز عنه ، وصمد له حتى توالت المعاول واحداً بعد لآخر ، فاستغرق سقوط البنيان ما يقرب من خمس سنوات ، وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة لى هى أن رحل شقيقى الأكبر عن الحياة منذ ١١ عاماً ، وتلفتُّ حولى فى محنتى ، فلم أجده إلى جوارى ، وقد كان يعرفه معرفة حميمة ويعرف أكثر من غيره أنه رفيق طفولتى وصباى وشبابى ، أن جزءاً ثميناً من روحى ونفسى وذكرياتى قد انطوى للأبد معه، وزاد من أساى

أن جاءتنى منه برقية عزاء فيه ، جدَّدت حزنى على الصداقة الضائعة بدلاً من أن تخفف عنى ، لأن البرق عزاء الغرباء والغائبين عن المكان ، وليس عزاء الأحباء والأصدقاء القريبين من الجوار ، فسلّمت لنفسى «بوفاة » الصداقة بيننا للأبد ،على الرغم مما بذل هو بعد ذلك من جهد لا أنكره عليه للحفاظ على الود بيننا ،ولكن صداقتنا كانت قد أصيبت فى الصميم بكل أسف ، ولست أستبعد أن يكون كما قال أحمد أمين عن نفسه وعن صديقه، «حزن لما أصابها وحزنت ، وبكى عليها وبكيت » حتى ولو كانت السبل قد تقطعت بيننا للأبد ، ولم يبق من صرح الصداقة سوى ما يكنه كل منا للآخر على البعد من ود وحنين ، فلا يدفع ذلك أحدنا للأسف إلى محاولة استئناف الصداقة ، التى بلغت أجلها المحتوم ، ولم تبق منها إلا الذكريات المشتركة ، وأصداء الأوقات السعيدة التى جمعتنا معًا فى مرحلة جميلة من مراحل العمر .

فاحزن يا صديقى إذا حزنت على أنك لم تحزن لفقد صديق عزيز مخلص ، وترنّم دائما معى بقول الإمام الشافعى رضى الله عنه :

وليس كثيراً ألف خلٍّ لواحد

وإن عـدواً واحـداً لكثـير !

صدقت والله ـ يا سيدى الإمام ـ بل وأكثر من كثير !